آدم يحيى عبد الرحمن الفلاني

راعي الغنم

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

راعى الغنم

آدم يحيي عبد الرحمن الفلاني

الطبعة الثانية ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٧ م

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة

١٠٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع : ٢٠١٧/١٦٥٨

الترقيم الدولي : I.S.B.N.

978-977-225-451-4

دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الفلانى ، آدم يحيى عبد الرحمن .

راعى الغنم : قصة / آدم يحيى

عبد الرحمن الفلانى .- ط٢ .- القاهرة :

مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٧

١٠٠ صفحة ؛ ٢٤ سم

تدمك ٤ ٤٥١ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

(١)

في المملكة الساهرة عجائب وغرائب لا تعد ولا تحصى ، وهـي مملكـة غريبـة وفريـدة ، لا تقـــاس أرضـــها بأرضنا ولا سماؤهـا بسـمائنا ، وكانـت هـذه المملكـة في حقبـة مـن الزمن ، لا يوجد فيها إنسان أو حيوان أو نبات ، وكل ما فيها من الموجودات هي رمال وجبال وصخور ، وكانـت الحـرارة القاتلة تتوهّج على سطح أرضها ، وكان السـحاب الثقـال مـن غبار وهباءات وجسيمات يعمّ سماءها في كثافة وظـلام . أمـا الذي ينظر إلى هذه المملكة من بعيد فإنه يراها نورا يتألق في الفضاء ويراها كوكبا يسبح في ملكوت الله .

كان أنس لا يـدري كيـف وصـل إلى هـذه المملكـة ومتـى وصل إليها ، وإنما يذكر أنـه هـرب ذات يـوم عقـب جريمـة وقعت له في بلده. ووصل إلى ظلّ شجرة مورقة لم تكن بعيدة عـن أقصـى المدينـة مـن جهـة شمالهـا . فجلـس تحـت ظـلّ

الشجرة يأخذ شيئا من الراحة ويمضي في التفكير ، ويتقلب في رأسه ألف سؤال حول تلك الجريمة التي ساقته إلى هذه الشجرة ، ولم يلبث أن دبّ النعاس في أعضاء جسمه فنام ، ولما أفاق من غفوته العميقة وجد نفسه مستلقيا تحت ظلّ الشجرة في المملكة الساهرة .

لم يشعر في أول الأمر بشيء من التغيّر ، ولم يشعر بأنه قد انتقل من بلده إلى بلد آخر ، بل ولم يشعر بأنه قد رحل إلى عالم غريب يختلف كل الاختلاف عن هذا العالم المألوف الذي عاش فيه زمنا طويلا ، ها هو ذا ينظر إلى ما حوله من أحياء وأشياء فهي كما هي قبل أن ينام لا تبديل فيها ولا تغيير ، وينظر إلى الديار المتواضعة التي أحاطت به من كل جانب ، وهي كما هي في صورتها وأمكنتها ، وينظر إلى ذلك البئر الذي وقع في مرأى عينيه من بعيد ، والذي رأى حوله رعاة يسقون ماشيتهم من مورده ، يرى أنه لا يزال في موضعه . فنهض من مضجعه وأراد أن يقوم على رجليه ويمشي إلى ذلك البئر ، ويروى عطشه بما فيه من ماء بارد ، هنالك يسمع صوتا دويا يدعوه من داخل الشجرة ويقول :

- يا أنس ! ما بك لا تمشي إلى تلك الديار المتواضعة التي تتراءى أمامك من بعيد وقد تجد من سكّانها من يعولك!

نظر أنس إلى يمين وإلى شمال ليرى من يتكلم لكنه لم ير أحدا ، فجعل يلتمس نفسه ويحقق ما حوله ، لعله كان مغرقا في نوم أو هائما في حلم ، ولكن ذلك الصوت يرده إلى الثقة ويؤكد له في دويّته الهائلة أنه ليس نائما ولا حالما ولا هائما ، وإنما هو يقظ كأقوى ما تكون اليقظة ، حاضر الذهن كأحسن ما يكون حضور الذهن ، ثم يسمع ذلك الصوت يقول من جديد .

- لا تخف يا أنس ولا ترع أنا المتكلمة ، وأنا شجرة ناطقة ، وأرجو أن لا تسيئ الظنّ بنطقي ، وإن كل شيء هنا ناطق لا أصمّ فينا ولا أخرس ، وستسمع بعد حين من كل حجر ومدر حديثا ونطقا ، حتى تؤمن بوجود ملكة النطق في كل شيء ، وقد تكون هذه الحقيقة مجهولة لديك قبل هذا اليوم فتتوهم أن الإنسان فقط هو كائن ناطق ، كلاّ فإن الحيوان هنا ناطق والنبات ناطق ، والجماد ناطق ، والجبال ناطقة ، والبحر ناطق والبرّ ناطق ، وما من شيء في الأرض

ولا في السماء إلا هو ناطق ، واعلم يا أنس أن هذه الموجودات لم تنطق اليوم فقط ، وإنما كانوا ينطقون منذ أن خلقهم الله لكنكم أيها الناس لا تفقهون نطقهم إلا إذا جاء مثل هذا اليوم فكشفنا عنكم الغطاء؛ أعني غطاء السمع والبصر والفؤاد ، وبعدئذ تسمعون كلام كل شيء وتبصرون وجوه كل شيء وتفهمون طبيعة كل شيء كما هي في صورتها وحقيقتها.

سمع أنس هذا كلّه فدهش وذهل ، وكان لا يدري أين هو الآن من هذا الحديث الذي لا يراه إلا لغزا أو خيالا ، فسرعان ما هبّ فجأة وقد ملكه الذعر وملأه الخوف لأنه يسمع صوت الشجرة ، يسمعه بأذنه لا بضميره ، يسمعه كما يسمع الناس أصواتهم حين يتحدث بعضهم إلى بعض فبدأ يدور في خلده هذا السؤال:

- أكان من الممكن أن يمسني طيف أو جنون أثناء النوم ؟

قالت الشجرة :

قل ما شئت بضميرك ولا تجهر به فإن لكل شيء هنا آذانا يسمع بها نجوى الضمير ، واعلم أن ما ترى وتسمع ليس من

أمر طيف أو جنون وإنما هو حقّ لا مراء فيه ، وكل ما في الأمر هو أن تسير إلى داخل المدينة ، فترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر !!

(٢)

سمع أنس ذلك كله وبدأ يشعر بدوار في رأسه ، وأخذ يتجه إلى البناء المتواضع الذي يلوح أمامه من غير بعيد ، ولم يكد يصل إلى البئر الذي يراه من قبل ، والذي يقع في رصيف الطريق حتى خرجت فتاة من ذلك البناء المتواضع ، وهي تمشي على عجل إلى ذلك البئر وتحمل على رأسها جرّة أرادت أن تملأها ماء ، وكان أنس يقترب منها شيئا فشيئا ، ويسمع منها صوتا تحمله إليه الريح ، وهو لا يفهم هذا الصوت في أول الأمر ، ولكنه يصغي إليه ثم يدنو منه ، فإذا هو غناء ، كانت الفتاة تتغنى ويملأ صوت غنائها الجوّ ، ووصلت إلى البئر وهي لم تهدأ من غنائها وترنمها ، ونظرت إلى أنس وابتسمت ، فكانت هذه النظرة تلقي في قلبه أمنا كما أن ابتسامتها تثير رعشة في بدنه كلّه .

وإنه لفي ما هو فيه من هذه الحالة المبهوتة وإذا هو يتلقى

شيئا آخر كاد يفقده رشده ، وكاد يسلبه ما بقي له من صواب ، كان يتلقى تحيّة حارة من تلك الفتاة كأنها عرفته من قبل ، وتدعو اسمه وتلح عليه في الدعاء كأنها من أهله أو جيرانه ، كذلك وقف أنس في شيء من الدهش والذهول فقال :

- كيف عرفت شخصيتي يا سيّدتي ومن علّمك اسمي ؟

قالت الفتاة :

- وهل في هذه المدينة من لا يعرف اسمك وشخصيتك ، قال أنس: فكيف تعرفون أمورا مجهولة وأشخاصا مجهولين؟

قالت الفتاة : نعرف جميع الأشخاص بقراءة أفكارهم في صفحات قلوبهم وعقولهم ، ونعرف أشياء أخرى بقراءة أسرارها في صفحات الكون والطبيعة. لأن هذا الكون عندنا هو اللوح المحفوظ لكل شيء ، قال أنس : بيّني لي سيّدتي كيف تقرءون ما في العقول من أفكار؟

قالت الفتاة :

اعلم أن الدماغ جهاز يحتوي على جميع معلومات صاحبه ، وإذا أردنا أن نعرف شيئا عن صاحب ذلك الدماغ فسرعان

ما نصل إلى دماغه عن طريق عينيه فننقل جميع المعلومات المطلوبة من الدماغ دون شعور من صاحبه بهذا النقل ، ونعلم بذلك أمورا لا تعدّ ولا تحصى .

قال أنس في شيء من العجب : إذن وقد أصبحتُ لكم جهازاً وكتاباً . قالت الفتاة متضاحكة : نعم كذلك قد أصبح هيكلك جهازنا وأصبح دماغك كتابنا ، نقرأ ما فيه متى شئنا وكيف شئنا ، ومادام أنت تعلم ما في دماغك من خواطر وأفكار فمن السهل جدّا أن نحيط بما فيه علما ، وعلى هذا النحو نعلم هنا كل شيء بكل شيء .

ثم اقترب منها أنس فقال متلهفا : بالله يا سيدتي ـ ما هذه المدينة التي وجدت نفسي فيها ومن أنتِ التي تتكلمين مذ لحظات؟

قالت الفتاة مبتسمة : هذه المدينة التي رحلت إليها هي الأرض الساهرة ! أما أنا فأختك التي سميتموها «صفية» قال أنس وهو يستنكر: كلاّ والله ما رحلت إلى هنا وما أنت صفية التي عرفتها في صغري ، كيف تقولين إني رحلت إلى هذه المدينة ولم أنو السفر ولم أركب جملا ولا ناقة ، وهل يمكن

للإنسان أن يرحل دون زاد ولا ركب؟ ثم تقولين لي إنك أختي صفية فمن أين لك هذا؟ فأختي التي عرفتُ بهذا الاسم قد توفيت منذ صغرها وهي لم تكبر ولم تبلغ السنّ التي رأيتك فيها الآن . وكيف تقولين ما لا تستطيعين أن تثبتيه بدليل ولا ببرهان ، ولا أستطيع أنا أن أفهمه بقليل ولا بكثير ، بالله يا سيدتي تحدّثي بما يقنعني في هذا الأمر ولا تتحامقي فإني في حاجة إلى مزيد من الإيضاح والبيان.

قالت الفتاة متضاحكة : ما ينبغي لك أن تتعجل في أمر ستتجلّى لك حقيقته عن قريب !

قال أنس : فماذا أفعل الآن فإني لا أستطيع البقاء بلا سكن ولا مأوى !

قالت الفتاة في دعابة وظرف : لا بأس عليك يا سيّدي فإن لك سكنا عندنا ، وهو ينتظرك منذ أمد بعيد ، فما عليك إلا أن تتبعني إلى ذلك المسكن فتلتقي فيه أهلك وأهلي وتستأنف العيش معنا من جديد .

(٣)

بعد هذا النقاش الذي لا رأس له ولا ذنب ، كما يقولون. انصرفت صفية وانصرف معها أنس في كثير من التجهم وغير قليل من القلق والاضطراب ، ولم يكد يمشي كلاهما خطوات حتى بلغا تلك الدار ودخلا مسرعين. ولم يكد يدخل كلاهما الدار ، حتى أقبل عليهما شيخ كبير من ناحية من نواحي الغرف المتجاورة ، يلقي على أنس تحية حارّة ويضرب بإحدى كفّيه على الأخرى هاشّا باشّا ، ويدعو جميع عياله إلى لقاء أنس في سرعة واندفاع. وكان أنس ينظر إلى كل وجه من هذه الوجوه التي تقترب منه شيئا فشيئا ، وتبتسم له وتتودد إليه ، وكان يرى أنه لا يعرف أحدا من أصحاب هذه الوجوه إلا الشيخ وإحدى بناته ، وما إن وقفت عيناه على الشيخ وعلى هذه الفتاة حتى أخذه العجب والاستغراب ، وقال داهشا ذاهلا : ما شاء الله ! ما شاء الله ! ما هذا الذي أرى؟

وما هذا الذي يحدث يا أبت؟ قال الشيخ في ضحك متصل : أنا أبوك « مالك » يا أنس ، وهؤلاء هم إخوانك وأخواتك الذين ينتظرون قدومك منذ حين . وكذلك هذه الفتاة وهي من أهل جارنا ، وهي تسمع بقدومك إلينا في هذا اليوم ، لذلك انضمت إلينا للاستقبال ، قال أنس : نعم أعرفك يا أبي ، وأعرف هذه الفتاة بنوع خاص ، إنها من بنات جارنا ، وأعرف كذلك أنكما ميّتان ، وقد توفي كل منكما منذ بضع سنين . وهل أنا ميّت الآن حتى تمّ بيننا هذا اللقاء؟ قال الشيخ مالك : على رسلك يا بنيّ وإنك تحتاج إلى تؤدة وتمهّل قبل أن تفهم حقيقة ما يجري حولك هنا. أما الأمر الذي لا مراء فيه فهو أن هذه المدينة التي وجدت نفسك فيها الآن ليست للأموات وإنما هي للأحياء ، نعم نحن أحياء في هذا البلد بكل ما في الأحياء من قوة ونشاط ، ولا وجود للموت هنا ولا الأموات ، قال أنس : ولماذا رأيناكما ميّتَين من قبل؟ لأنني تذكرت أن أهلكما قد دفنوكما في التراب بعد مماتكما في تلك الأيام .

هنا استغرق الجميع في ضحك متصل وأخذوا يتبادلون الحديث بينهم في لغط وصياح ، وبعد ما هدأت الأصوات

واللغط ، قال الشيخ مالـك : انظـروا إلى ولـدي فإنـه لا يفهـم معنى الموت ومعنى الحياة! قال أنس : كلا يا أبت فإني أفهـم حقيـقـة الموت والحياة وأفهم أنني حيّ وأنت ميّـت ، لأنـنـي لا أزال أرى قبرك وراء دارنا كل يوم . قال الشيخ مالـك : إذن كيف يمكن لنا هذا اللقاء لو كنت ميّتا كما تقـول الآن؟ قـال أنس : نعم يا أبت ، هذا الـذي يدهشـني في هـذه اللحظـات ، وهـذا الـذي لا أفهمـه في هـذا الأمـر ، لأنـني أعلـم أنـه مـن المستحيل نوع هذا اللقـاء إلا إذا كنـا أحيـاء أو أمواتـا . قـال مالك : وهل رأيت نفسك ميّتا في هـذه اللحظـة؟ قـال أنـس : لستُ ميّتا بل أنا حيّ .

قال الشيخ مالـك : وهـل كـان الميـت يـتكلم مـع الحـيّ ، ويتحرك كما أنا أكلّمك وأتحرّك بين يديك؟

قال أنـس : كـلا ، الميّـت لا يـتكلم مـع الحـيّ علـى هـذه الصورة .

قال الشيخ مالك : إذن أنت حيّ وأنا حيّ كذلك .

قال أنس : فماذا تريد مني أن أفهمه من هذا كله! قال مالك : أودّ منـك أن تفهـم أن الحيـاة ليسـت كمـا تظنّهـا ولا كمـا

تصوّرها ، وإنما هي كالشمس التي تشرق وتغرب في أعينكم ، ولكن في الحقيقة لا شروق للشمس ولا غروب لها . وإن الذي جعل الشمس تشرق وتغرب في أعينكم هو دوران الأرض حولها في كل وقت وساعة . وهذا الدوران كلما تجري ترى الشمس طالعة وغاربة . أعني بذلك أن الشمس عندما غربت في بلد قد أشرقت في بلد آخر ، وعندما أشرقت في موطن قد غربت في موطن آخر من الأرض! قال أنس : وما علاقة طلوع الشمس وغروبها بحياة الإنسان وموته ؟

قال الشيخ مالك : علاقته هي أن حياة الإنسان حياة أبدية سرمدية ، وأن الذي يعتريه من ولادة وموت إنما هو عرض يأتيه من حركاته وتنقلاته من طور إلى طور آخر ، ولقد كان الإنسان قبل ولادته في موطن ، وفي دنياه هو في موطن ، وبعد عيشه هو في موطن من مواطن الأرض. وكانت الحياة تمدّها قوّة ونشاطا في كل طور من هذه الأطوار كلها ، وإن كان الإنسان لا يستطيع أن يتنقل من بين هذه الأطوار إلا بغروبه في بلد وطلوعه في بلد آخر ، وهذا الغروب هو نهاية الحياة في موطن ، كما أن الطلوع هو بداية الحياة في موطن آخر من الأرض ، وهكذا .

ومن هنا تعلم أن الإنسان في جميع هذه الأطوار كائن حيّ يسلك طريق الموت إلى الحياة ، كما يسلك طريق الحياة إلى الموت ، وهكذا إلى ما شاء الله .

قال أنس وهو يهزّ رأسه متعجّبا ، هذا بالطبع ـ إن لم أسئ الفهم ـ دليل فلسفي على وجود دوران الحياة ، حيث كانت الحياة تدور حول نفسها ، وكان الإنسان يدور حول الحياة !

قال الشيخ مالك : نعم كذلك كان الأمر يا ولدي ، فتلك هي الحياة في حقيقتها ، وإن دورتها مثل دورة المياه التي تشهدونها على سطح الأرض وتقرونها في بحوثكم العلمية . لا أقل ولا أكثر .

قال أنس وهو ينظر إلى جميع الوجوه التي أحاطت به من كل جانب:الآن قد حصحص الحق وكنت على بينة من أمري، ولقد تركت أهلي هناك ولقيت أهلي هنا فلا حزن على ما فات بعد هذا اليوم . ولقد كان شيء من القلق والضيق يعترضني ويشغل بالي منذ أخذت أحسّ غموضا في بعض الأشياء واختلاطا لبعض الأمور وقصورا عن تفسير ما يقع حولي من الخطوب . أما في هذه اللحظات فقد بدأت أفهم حقيقة الأمر ، ولكن هناك أمر آخر لا أستطيع أن أفهمه

ويسؤني أن أشعر بعجزي عن فهمه وتأويله ، وهو أمر انتقالي من هناك إلى هنا ، وهو أمر لا يزال مبهما. لا مرض يصيبني ولا حادثة تصطدمني ، حتى أستحق هذا الموطن الذي وجدت نفسي فيه الآن وكل ما أعلم في أمري هو أنني نائم تحت الشجرة ، ولما نهضتُ من نومي وجدت نفسي في هذا العالم الغريب ، أفلا يكون هذا التنقل نوعا من الاختطاف؟

هنالك تقهقه الشيخ مالك تقهقها شديدا ، وتبعه الحاضرون في ذلك واستغرقوا في ضحك متصل وتقهقه شديد وقالوا في صوت واحد بعدما شبعوا من الضحك .

- أى مسكين ابن مسكين !

وما أتمّوا هذا التعبير حتى التفت الشيخ مالك إلى من حوله من أعضاء أسرته وقال : عودوا إلى مكانكم من الدار فسيكون لي معكم حديث بعد حين . ثم نظر إلى تلك الفتاة التي هي من أبناء جارهم وأومأ إليها برأسه ، ففهمت الفتاة إشارته ، فأسرعت الفتاة إلى جانب أنس تهمس إليه بصوتها العذب الرقيق ، وكأنها تستأذنه على الانصراف معها إلى غرفة جهّزوها له بعد ما علموا بقرب أيام نزوله في هذا الموطن الغريب .

(٤)

لم يكد أنس يستلقي على ظهره في الغرفة التي جُهّزت له ، حتى بدأ يستعيد في ذهنه شريط الزمن ، وأخذ يـذكر جميـع الأحداث التي جرت عليه مجملا وتفصيلا .

كان يذكر أن أباه مالكا راعي الغنم في حياته. كـان يرعـى لقومه حقبة من الزمن ، عند مـا كـان فقـيرا معـدما. ثـم كـان يرعى لنفسه وأهله بعد ما ظفر بقطيع من الغنم ، وبلغ عـدده رقما لا يستهان به في ذلك الوقت . ولقد رأى أنـس أبـاه غـير مرة يدفع الغنم أمامه ماضيا بها إلى مراعيها ، ورآه كذلك غير مـرة عائـدا بهـا إلى حظائرهـا. ثـم رآه في فـترة مـن الـزمن يستأجر خادما يعينه على رعي الغنم بعد ما تقدّمت به السـنّ وطال به الجهد ولم يبرح بـه الألم ويحسّ في نفسـه الضـعف والفتور .

وكان هذا الخادم يتعوّد أنس أن يـدعوه « جـالّو » ، ولكـن اسمه الحقيقي هو يعقوب ، وكـان مالـك يحـبّ هـذا الخـادم حبّا جما ، ولا يسـتطيع أن يضـمر لـه هـذا الحـبّ في أعـين الناس؛ لأن هذا الخادم كان يتمتّع بصوت رخيم وعقـل كـبير. وكم من أيام كان أنس يستأنس إلى صوت هذا الخادم الذهبي ونغماته العذبة الرقيقة ، وكم من أيام يرى مالك ذلك الخـادم « جالّو » يسـوق القطعـان مـن الأوديـة والجبـال إلى مرابطهـا وحظائرها . وكـم مـن أيـام تغـيم السـماء وتضـطرب الأرض ويرى مالك أن خادمه جالّو لا يستظلّ بشيء فوق رأسه وإنما يهشّ الغنم بعصاه ويرسل نغماته وراءها في طرب وسخاء .

وهذا كله هو ما جعل مالك يخلص له الحـبّ ويظهـر لـه الود الخالص ، ويمنحه حرية واسعة بعيدة المدى في حياتـه . هكذا بدأ الخادم « جالّو » يشـعر بشـيء مـن التغيّـر . ويشـعر فيـما بينـه وبين نفسـه أنـه واحـد مـن عيـال مالـك يسـوءه ما يسـوءهم ويسـرّه مـا يسـرّهم . وإن فـراقهم سـيكون عليـه عسيرا،وإليه بغيضا.هناك آثر « جالّو » الإقامة على حبّ هؤلاء الناس والوفاء لهم . لكن ما أقصر الأيام إذا طابت وما أطولها إذا كدرت! ، ولقد مضت الأيام ومرت السنون ، وصار الخـادم

جالّو شابّا ثم رجلا ، لكنه لا يزال أعزب غير متزوّج . وكـان أمـر الزواج لـم ينسـه قـطّ وتفكيره فيه لم يـزل يؤرقـه لـيلا ، ولا يزال يذكر يوما وجد نفسـه مغرمـا بإحـدى بنـات سـيده مالك ، ودفعـه هـذا الغـرام إلى أن يـؤثر الجلـوس في العـراء مسرحا طرفه أمامه ، يرى حينا ولا يـرى حينـا آخـر مرسـلا نفسه في هذه السهول والوديان تهيم في غير وجه وتـذهب في غير طريق ، وكان تفكيره يتصل إذا أصبح فطرد الغـنم أمامـه إلى مراعيها ثم انتهى إلى حيث يستطيع أن يخلي بينهـا وبـين ما ترعى من الكلأ والعشب ويفرغ هو لنفسه ويسـتجمع قـوة ذاكرته ليرى فيها حبيبته ، ولم يلبث أن كان جالّو يسـعى وراء طيف حبيبته أياما طوالا ، ويسعى إلى سيده بعد ما لم يستطع أن يظفر بشيء من ذلك ويبوح له سرّ هذا الحب الطاغي ، ثم يطلب منه أن يعينه على هذا الأمر إذا أحبّه حقّا. هنالك تقـدّم مالك إلى بنته وأخذ يغريها بـالزواج مـن خادمـه « جـالّو » ، لكنّ الفتاة لم تر في هذا الزواج إلا إهانة لشرفها ، لأن جـالّو لا يزال خادما في نظرها ، مهما طالت به الإقامـة في وسـطهم وكان الخادم ـ كما قالت بنت مالك في ذلك اليوم ـ شبه عبـد في أعين قومها وإن تطاول الخادم الجبال في عزّته وكرامتـه ،

هنالك بدأت هذه الكلمة « شبه عبد » تجري على لسان « جالّو » وتتردد في ضميره في ذلك اليوم كلّه . وكم مضى بعد ذلك اليوم من أيام وكم تغيّر بعد ذلك اليوم من شأن ، أما تلك الكلمة فهي لم تتغيّر في نفس جالّو ولم ينسها قطّ في حياته . لكنه يتظاهر للناس أنه نسيها وغفل عنها ، وأخذ يمضي في شأنه ويظهر لهم الودّ إلى أن تفانى مالك وعياله في الوثوق به واطمأنّوا إليه في كل شيء .

وفي يوم من الأيام ساق جالّو جميع الماشية إلى حيث لا يراه أحد ولا يلتقي به أحد ولا يسمع عنه أحد من الناس ، كل ذلك هو ما ذكره أنس فيما يذكر ، وذكر كذلك أن أباه مالكا قد تغيّر حاله إلى أسوأ ما يكون ، بعد ما ساق خادمه قطيع غنمه إلى حيث لا لقاء بعده . وإنه ليذكر كيف بدأ أبوه العمل الشاق من جديد ، ويذكر كيف كان يجبرهم ــ هو وإخوانه ــ على هذا العمل الشاق كرها ، كانوا يحرثون ويزرعون ، ثم يقرضون على حساب حرثهم وزراعتهم قبل أن يصلوا إلى ما يأكلون صباحا أو مساءً . وأنه ليذكر أن الشيخ مالكا يجلس أحيانا على أريكته ويستعرض حاله السيّئة وفقره المدقع ، وما كان يلقى من الجهد في قوت عياله ،

وكان يشعر في أعماق نفسه بشيء من الندم في ثقته بالخادم وبشيء من الحزن الدفين فيما آل إليه أمره بمرأى أعين الناس ، ولكن هذه الندمات لم تكن تسلّي الشيخ مالكا عن زلّته ، ولا تقيله عن عثرته ، ولا تخفّف عليه حزنه ، ولا تردّ عنه ألمه . وإنما كان ندمه يزداد وينمو حتى يخرجه عن طوره أحيانا ويغمى عليه. ثم يفيق من إغمائه بعد وقت قد طال أو قصر ، كذلك عاش مالك في آخر حياته مقسما بين اليأس والأمل ، وبين الثقة والشكّ وبين اللوم لنفسه والاعتذار عنها من قبل أسرته . إلى أن فارق دنياه في نهار ذلك اليوم الذي عاد من حقله حيث يزاول الحرث والزراعة في غدو ورواح.

وفي ذلك الحقل وقعت جريمة أنس لأنه قتل راعيا مجهولا نفثت غنمه في حرث طالما يرهق نفسه عليه وطالما ينتظر عليه يوم الحصاد .

ذكر أنس هذا كله ، ولم يكد يصل في ذكرياته إلى حادثة هذه الجريمة حتى بدأ يسمع خطوات تدنو وتدنو من غرفته فأفاق من غيبوبة الذكرى ، وإذا الفتاة التي أدخلته الغرفة هي التي عادت إليه من جديد .

(٥)

أقبلت تلك الفتاة على أنس ، وهي تنظر إليه وعلى ثغرها ابتسامة غامضة ، وتقول له في صوت تملؤه الشفقة والحنان.

- ما بك يا أنس؟ ولماذا لم تأخذ شيئا من الراحة والسكون؟ ألم تر أنك أشعث أغبر ، أتظنّ أنك في هذه الحال الرثة تصلح لمجالسة أسرتك هنا؟

قال أنس مسرعا : عفوا يا سيّدتي رحيمة إني لا أصلح لشيء هنا ، ولم أطلب شيئا إلا أن أردّ إلى حيث كنت ، وأعود حرّا طليقا أطوف في الحقول والبساتين وألتمس محراثا أحرث به الأرض وأزرع به الحمص والفاصوليا وغيرها من النباتات ثم أعود إلى أهلي وآخذ قسطا وافرا من الوجبة ، وأريح نفسي من التعب بالغفوة العميقة .

وهمّت رحيمة أن تتكلّم فقاطعها أنس وقال : أفأنت ترين أنني لا أستطيع أن أغمض عيني مذ لحظات نزولي في هذه

الغرفة ، ولم أجد طريقا إلى النوم الذي سيمنحني الراحة بقليل أو بكثير.

قالت رحيمة : ما أعظم شأنك يا أنس! أنت لا تزال تذكر اسمي ، والله ما أعرف أنك ستذكر اسمي ، وكل ما أتوقّع منك في هذا اليوم هو أن تنساني بعد غيابي الطويل ، أما الآن فقد بدا لي أن الله أراد أن تمسي لي سميرا كما كنت لي سميرا في وقت من الأوقات .

قال أنس مرتاعا : ماذا أقول لك وماذا تقولين لي الآن؟ أنا أحدّثك عن رغبتي في الغذاء والنوم وأنت تحدثينني عن أيام السمر والمصاحبة !

قالت رحيمة : عجبا لك يا أنس ، ما زلت حتى الآن شارد اللبّ ، وإنك لم تتجاوز بعد أول الطريق ، ألم تعلم أن هذا الموطن الذي تعيش فيه الآن موطن ساهر ، لا حاجة بك فيه إلى سِنة ولا نوم ، ولا حاجة بك إلى تلك المطعومات والمشروبات التي ألفتها في دنياك ، وكل ما تحتاج إليه في هذا الموطن الساهر هو الظلمات أو النور .

قال أنس مستغربا : ما هذا الهذيان يا سميرتي! كيف يستطيع الإنسان أن يعيش بلا نوم ولا غذاء؟

قالت رحيمة : مهلا يـا أنـس! كـل كـائن حـيّ في الأرض والسماء يحتاج إلى الغذاء ؛ لأن الغذاء ضروري للحياة ، لكن يجب أن تفهم أن طريقة التغذية هي التي تختلف على حسب اخـتلاف المخلوقـات ، ويجـب أن تفهـم كـذلك أن طريقـة التغذية عندنا تختلف عن طريقة التغذية عندكم ، فنحن ــ في هذا الموطن الساهر ـ نتغـذّى علـى النـور مباشـرة ، وبعضـنا يتغذّى على الظلمات في موطن لا ضياء فيه ولا نـور ، وهـذا كما ترى يشبه تماما حياة النبات عندكم ، حيـث كـان النبـات يصنع غذاءه من ضوء الشمس مباشرة ، ويتحـوّل هـذا الغـذاء إلى المـادة الخضـراء الـتي تسـمونها علـى لسـان العلـم «كلوروفيل». وكان ضوء الشمس هو الذي يوفّر الدفء اللازم لنموّ النبـات ، وينشـط الأوراق الخضـراء لتقـوم بعملـها أثنـاء النهـار ، فالنبات على هـذه القاعـدة ذاتـي التغـذيـة ؛ لـذلك لا تسـتطيعون أن تـروه يأكـل شـيئا كمـا تـأكلون أنـتم والحيوانات . هذا كما ترى مثال حيّ فيما يجري حولك هنـا من قانون التغذية . فالإنسان قبل أن تكمـل دورة حياتـه لا بـد أن يسلك هاتين الطريقتين : يسلك طريقة تغذية الحيـوان في موطن ، وطريقة تغذية النبات في موطن آخر ، وفي ذلك تتمّ له دورة الغذاء في حياته البشرية .

وهنا نظرت رحيمة إلى عين أنس ولاحظت أنه أصبح حائرا مبهوتا ، لكنها لم تلتفت إلى هذه الحيرة والبهت ، وإنما تستمر في حديثها قائلةً :

- أما اليوم فنحن في حياتنا البشرية قد عشنا على طريقة التغذية الحيوانية ردحا من الزمن ، وبقي لنا أن نعيش ـ في هذه الأرض الساهرة ـ على طريقة التغذية النباتية كي نكمل في حياتنا دورة الغذاء الطبيعية . وبعد هذا البيان الشافي يا أنس فما بقي لك إلا أن تعتمد على نفسك في صنع غذائك من الضوء مباشرة ، وإذا بدأت تسلك هذا الطريق في التغذية فلا حاجة بك إلى النوم أبدا ؛ لأن النوم الذي تتحدّث عنه أسير المواد الغذائية الأخرى ، لا قيمة لها في عالم النور .

ولما وصلت رحيمة في حديثها إلى هذا الصدد ضحكت في رقّة ولطف،ومشت مشية القطط إلى نافذة من نوافذ الغرفة، ففتحتها وأقبلت بوجهها على شعاع النور وأغمضت عيناها وفتحت فمها في رفق وأناة . كذلك كان شعاع الشمس ينزل ويصل إلى حلقومها ، وكذلك كانت رحيمة تتحوّل شيئا فشيئا

من صورة البشر إلى صورة بُخار ثم إلى هيئة من نور ، ثم بعد ثوان اختفت هي وتوارت في حجاب.

هنالك صاح أنس وفزع وملأ رعبا ، ثم بدأ يحسّ حركة خفيفة كأن الظلام ينزل في المكان ، فنهض مذعورا وهو ينوي الفرار ، فدوتْ في المكان ضحكة أناس لا يراهم ولا يعرفهم ، وسمع واحدا منهم يقول :

- انظروا إليه ! إنه يذعر كأنه حمار ، وقال الثاني : إنه غمر جاهل لا يفهم شيئا ، وقال الآخر : وكأنّ صوت حبيبته رحيمة :

- يا أنس لا تهرب ، افعل كما فعلتُ أنا!

وأسرع أنس إلى تلك النافذة التي ينبثق منها شعاع النور ، وفتح فاه ، والتهم من شعاع النور ما شاء الله له أن يلتهم ، فأظلم المكان ، وتحوّل هو من هيئة إنسان إلى هيئة من نور ، وبعد ثوان توارى هو في حجاب .

هنالك يرى أنس أنه لم يكن من قبل في غرفة مبنية من الطوب وإنما هو في فجوة من الكهف .

(٦)

لم يستطع أنس أن يصف هذا الكهف ، ولم يستطع أن يصف ما حوله من أحياء وأشياء ، وإنما يلاحظ أن أرض الكهف تدور معه ويدور هو كما هي تدور. ويلاحظ أن جلال الظلمة القاتمة امتدت وهي تروع لكثافتها وامتدادها من كل نحو وفي كل وجه . ويلاحظ كذلك أن السرعة الكبيرة كانت تدفعه دفعا وتمجّه مجّا عنيفا . وكأنه في سراديب الظلمات ، لا يرى شيئا ولا يسمع صوتا ولا همسا. ولقد بهره في هذا المكان غشيان كثيف قد شاع فيه صمت عميق . ثم أفاق من هذا الغشيان وذهب عنه الدوار ، وانبثقت أشعّة ضئيلة متفانية تمتدّ إلى فجوة من الكهف . فنهض أنس مسرعاً يمضي إلى ناحية النور. ها هو ذا يبلغ باب الكهف وها هو ذا يخرج منه وينظر إلى نفسه ويطيل النظر ، وها هو ذا يرى أنه ظهر في لبس جديد .

كان أنس ينظر إلى نفسه ، لكنه لا يراه شخصا يمشي على قدميه كما هو من قبل ، وإنما يراه شبحا يطير ، قد ذاب عنه ما فيه من لحم ودمٍ وعظامٍ ، وانقلب كل عضو من أعضاء جسمه إلى شيء آخر لا يرقى إليه الوصف . ولقد تحوّل هذا الجسم إلى هيكل نوريّ تكوّنت مواده من دخان أزرق قاتم ، لا عين فيه ولا أذن ولا يد فيه ولا رجل . وإنّما ظهر هذا الهيكل في صورة ظلال بشر ، لكنه ظلال من نور.

كذلك بدأ أنس يسمع صوتا يأمره بالمشي ويقول له في شيء من الهمس :

- يا أنس امش أمامك ولاتقف !

بدأ أنس يمضي أمامه دون أن يسأل نفسه أهو هاد في طريقه أم هو هائم في غير طريق . وما يشكّه في استقامة الطريق له واعتدالها أمامه وهو قد سلكها أمس ، وهو لا يسلكها اليوم إلا مأمورا ، فإن الذي أمره أن يمضي أمامه يهديه سبيله إلى مأمنه وإلى غايته . ما يتطرق إليه في ذلك شكّ ولا ريب . فليمض أمامه ، وليمض لا ملتويا على شيء ولا حافلا بشيء وليبعد الخطى فإن الأمد بعيد !

كذلك كان أنس يمضي ، وكذلك كانت الظلمات تتراكم ويركب بعضها بعضا ، وكانت الأصوات بدأت تأتيه من جميع أقطاره وتكاد تغرقه ، ولكنّه لم يفقد رشده ولم يضل صوابه فهو يشهد أنه يندفع دفعا قويا ، ويشهد أنه يصل إلى حجر أو جبال وجدار ، فيمرّ بداخلها دون عائق ودون شعور منه بهذا المرور ، وقد يصل إلى البحر أو المحيط فيرى أنه يرفرف عليه مارّا به كأنه نسمات من الهواء ، وهو يشهد هذا كلّه شاعرا به ، محققا له ، مفكرا فيه ، ثم لا يلبث أن يصل إلى موطن كثرت فيه أمثاله من الأشباح فيرى أنه لم يستطع في أول الأمر أن يميز بعضهم عن بعض إلا بالصوت. نعم ، تلك الأصوات التي لم تكن في رأيه منطوقة وملفوظة ، وإنما هي خواطر نفسية تنتقل من ذهن إلى ذهن آخر ، ها هو ذا يسمع صوتا يأمره بالدنو منه ، فنظر أنس إلى مصدر ذلك الصوت فإذا هو شبح مثله كان أكثر منه لمعا وأجمل منه بهاءً ونورا. فقال صاحب هذا الصوت: هل عرفتني يا أنس؟

قال أنس: نعم عرفتك يا رحيمة ! قالت رحيمة : الآن بدأت تتأقلم ببيئتنا وتندمج فينا وتسير سيرنا .

قال أنس : قد عرفتك من قبل بلونك وصورتك ، أما الآن فلم أستطع أن أعرفك إلا بما تعودته فيك من صوت رقيق.
قالت رحيمة : في هذا الموطن لا لون فيه ولا صورة وإنما يظهر كل إنسان على قدر نوره وضيائه ، وقد يكون من الصعب في بداية الأمر أن تدرك كل إنسان بنوره وضيائه ، لكن بعد زمن طال أو قصر ستدرك جميع الناس بأنوارهم وضيائهم كما تدركهم الآن بأصواتهم ولهجاتهم ، فالأنوار عندنا مختلفة ومتنوّعة كما أن الأصوات مختلفة ومتميّزة.

قال أنس : بالله يا سيّدتي حدّثيني عن مصدر هذه الأنوار وأسباب اختلافها وتفاوتها فينا لأنني لاحظت أن هويّتي أقل من هويتك نورا وأضأل منك بهاءً.

قالت رحيمة : مصادر الأنوار يا أنس هي الأعمال ، وأنت لم تستطع أن تصل إلى النور في هذا الموطن إلا على قدر أعمالك الحسنة من قبل ، ولقد كانت الأعمال مزروعة قبل اليوم وهنا يكون حصاده ، وفوق هذا فإن أمورنا في هذه المهلة التي أتيحت لنا تجري على قوانين لا نعقلها ولا نحققها ولا نحيط بها كما كانت أمورنا في حياتنا الأولى تجري على قوانين ليس لنا عليها سلطان .

قال أنس : وتظنّين أن أمورنا تجري في حياتنا الـدنيا علـى قوانين لا سلطان لنا عليها ؟

قالت رحيمة : لا أظنّ ذلك وإنما أقطع به ولو قـد جـرت أمورنا على قوانين نعرفها ونألفها لقدمنا من الأعمـال غيـر ما قدمنا ، ولتجنبنا من السيرة ما يسوقنا إلى الويل والثبور في هذا المكان .

قال أنس : ما الويل والثبور فيما تقولين الآن ؟

قالت رحيمة : الويل كـل الويـل لـلأرواح الخبيثـة في هـذا الموطن الساهر؛ لأن مثـل هـذه الأرواح لـن تصـل إلى قوتهـا اليومي ، ولن تستطيع هضم شعاع النور كلما تطلع الشمس ، وكل ما في وسعها هو أن تهضـم الأنـوار الضـئيلة المضـطربة التي تخفق في ظلمة الليل ، ويزداد أمرها سوءا على سوء. أما الأرواح الطيبة فطوبى لهم! فإنها تأخذ غذاءها من النور مباشرة علـى النحـو الـذي أخذتـه معـك في ذلـك الكهـف . وكلمـا تستهلك هذه الأرواح الطيبة أنوار الشمس فإنها تزداد نورا على نور ، وتزداد نشاطا على نشاط وتتظاهر بعد أيـام وشـهور في الصورة التي رأيتني فيها الآن .

قال أنس : إذن عدم حصولي على غذاء النور لزمن طويل هو الذي يجعلني ظاهرا في لون قاتم لا تتألق في نوره ولا ضياءً

قالت رحيمة : أجل ، ذلك هو السبب يا أنس فإن حصولك على الغذاء النوري بكثير سيطهرك من الأدناس والأوضار التي تتظاهر في جسمك النوري منذ نزولك في هذا الموطن الساهر . أخذ أنس يحوقل بعد ما سمع هذا الحديث ، ويكبر الله جهرا فقاطع صوت أبيه تلك الحوقلات والتكبيرات وقال :

- يا أنس ، كأنك تريد أن تسأل رحيمة عنّي ، انظر إلى جانبك الأيمن فأنا الذي ظهر فيه نورا . والتفت أنس إلى ذلك الجانب الذي وقع فيه مقام أبيه ، فقال له أبوه ـ وكأنه قد اختطف الفكرة التي تراود أنس وتلمّ به إلماما شديدا ـ :

أنت لا تزال تذكر تلك الجريمة التي اقترفتها في الحقل . لا بأس عليك ! لا بأس عليك ! فإنك في هذه اللحظات بالمقام الذي يعرض على الناس ما قدموا من خير وشرّ ويعرض عليهم الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك الخير أو الشرّ قبل أن يتلقوا ما قدر لهم من مثوبة أو عقوبة . انظر إلى أمامك يا أنس !

ولم يكد أنس يتلقى هذا الأمر من أبيه حتى نظر إلى أمامه، فإذا هو في غمرة من النور . ولقد انبثق هذا النور على قدر ذرة في بداية الأمر ، ثم يزداد حجما ثم يزداد ضياء وتألقا ثم انقلب فجأة فإذا هو نورٌ يعمّ المكان بضيائه وتألقه ، فوجد أنس نفسه أمام مشهد عظيم ، ويا هول ما يرى ويا هول ما ينظر إليه! في عجل سريع !

(٧)

في هذا المشهد العظيم ينظر أنس إلى أبيه الراعي ، وينظر إلى « جالّو » خادم أبيه عندما يسوق قطيع غنمهم إلى خارج حدود بلاده ثم تمضي لحظة ولحظة وإذا هو ينظر إلى « جالو » في مكان من الصحراء قد أحاط به نفر نحاف الأجسام سمر الوجوه ، يكتنفهم ظلّ خيمة غليظة خشنة ، كانوا يرفقون به ويعطفون عليه ويقدمون إليه فتاة ذات جمال بعد ما قدم « جالو » إليه شيئا غليظا من طعام وشراب ، وكأنّ هذا المشهد مشهد زواج بين تلك الفتاة الجميلة وجالّو الخادم ، هو إذن لم ينزل بذلك المكان ليستريح بقطيع الغنم وإنما ينزل ليقيم ويستقرّ ، وكان القوم من حوله قد أصابوا شيئا من طعام وشراب واستردوا حظا من قوة ونشاط ، ولم يلبث أن كانوا يتنادون ويتناجون وتختلف بينهم الألفاظ والألحان والإشارات ، ثم يتفرقون بعدما أدّوا ما عليهم من واجبات الزواج .

ثم تتصل الأيام وتتبعها الليالي ، وإذا المشهد يرينا ما بلـغ إليه جالو من رزق واسع وثراء عريض ، وكـان أطفـال الحـيّ وصبيانه يختلفون إلى خيمته فيطيلون فيها المقام وتتصل بينهم وبين ابنه الوحيد فنـون مـن اللـهو الهـادئ ، والدعابـة الرقيقـة والغليظة ، ولم يكد أنس ينظر في هذا المشهد إلى وجه ذلـك الفتى الغارق في الدعابة واللهو مع أولئك الصبية الذين مـلأوا عليه خيمته حتى بدأ يذعر ويرتجف ، لأنه يرى أن ذلك الفتى هو الذي اعتدى عليه في الحقل وقتلـه ببندقيتـه . أيكـون هـذا الفتى هو ابن جالو الذي ساق قطيع غنم أبيه إلى ذلك المكان من الصحراء؟ إنما هو سؤال يجب أن يصبر عليه حتـى يريـه المشهد حقيقة كل شيء ، ثم تنتقل حركات المشهد وتستمرّ ، فإذا الفتى قد ظهر في واد يسوق غنم أبيـه وكـان ذلـك اليـوم ممطرا ، وكان أبوه قد عجز عن الرعي في ذلك اليوم ، وكـان يرى أن يذهب بعيـدا عـن حـدود هـذه الخيمـة الخشـنة الـتي ضربت عليه ، وكان يلتقي بـأفراد مـن النـاس يقبلـون عليـه ، فينظرون إليه ، فمنهم من يعجب به ومنهم من يعجـب لـه في بُعده إلى حيث يصيب الكلأ بكثير ، أما هو فلم يحفل بهـؤلاء ولا بأولئك وإنمـا يـذهب بـالقطيع بعيـدا عـن أنظـار النـاس.

ويقبل المساء ولم يعد الفتى بالغنم ويقبل الصباح بعد ليل طويل ولم يذق أبوه جالو فيه النوم إلا غرارا ، لا لأنه ضيّق بحاله ، كاره لمكانه ، بل لأنه بدأ يتذكر ذلك اليوم الذي ساق غنم سيّده مالك إلى هذا المكان ولم يعد إليه حتى هذه اللحظة الكارثة .

هنالك نهض جالو في حركة بطيئة ثقيلة ، وخرج من خيمته الخشنة وأخذ يمضي ويبحث في كل مكان عن ابنه وغنمه . وقد يكون الأمر هيّنا عليه ومألوفا له ، لولا هذه الخواطر التي تلمّ به فتثير في نفسه آلاما لاذعة بين حين وحين ، تذكره بما قدمت يداه من خيانة وظلم ، وبما اقترفت يداه من إثم وعدوان ، وبما لا يزال يتمنى في وقت من الأوقات أن يغفر الله له ويتوب عليه فيما تقدم من ذنبه وما تأخر .

ويرتفع ضحى ذلك اليوم وإذا الخادم جالّو قد هوى على قدميه تحت ظلّ شجرة كبيرة في ناحية من نواحي الغابة ، وكان يحسّ الظمأ ويجد ألمه محروقا لاذعا ، وهو لا يستطيع أن يطفئ هذا الظمأ ثم لا يستطيع أن يرى ما حوله من أشياء

وأحياء فقد حيل بين عينيه وبين الضوء؛ لأن الحيّة الرقطاء قد لسعته ، وسرى سمّها إلى دماغه فورمت قدماه وهوى على الأرض صريعا ميّتا تحت ظلّ الشجرة .

ولما بلغ المشهد هذا المقام تنفّس أنس من أعماق نفسه تنفسا عميقا ، وقد ملكه الذعر وهو لم يستطع أن يتكلّم ولم يستطع أن يتحرّك بل ولم يستطع أن يفكّر حتى في أن يسأل نفسه ماذا يراد بهذا المشهد؟ وإلى أين يُقصد به؟ وما عسى أن ينفعه هذا السؤال؟ وما عسى أن يجدي عليه التفكير فيه؟ إنما يرى هذه الحادثة محنة لا بد من أن يحتملها بقلب كبير ، وخطب لا بد أن يصبر عليه حتى يمكن له تحقيق ما يريد في نهاية الأمر. ولقد ضاق بكل ما يجري حوله من حادثة وخطوب ، وخاصة فيما يتعلّق بمصير جالو من ويل وعذاب.

ولقد رأى فيما يرى أن ذلك الفتى ابن جالو قد عاد في اليوم التالي بقطيع الغنم إلى حظيرة أبيه ، لكنه قد سلك طريقا ملتوية عندما يعود إلى خيمة أبيه وسلك أبوه طريقا أخرى ، هي أيسر وأقرب للباحث عن ضالّته ليلا. فمضى كلاهما في طريقه دون أن يلتقي أحدهما بصاحبه ، ودون أن يعلم أهل

الحيّ بمرورهما إلى حيث لا لقاء بين جالو وابنه بعد ذلك اليوم .

كذلك كان الفتى يرث أباه جالو ، وكذلك كان يسوق قطيع غنم أبيه من ذلك المكان في الصحراء لا لشيء سوى أنه ضيّق بحاله ، كاره لمكانه . وهو يريد أن يبتعد عن أعين الناس ، ويمضي إلى أماكن أخرى يستردّ فيها الأمن والراحة ، ويفرّ بنفسه وماشيته من قحط وجدب كانا يهدّدان كل رعاة الغنم في الصحراء أثناء الصيف والخريف ، كذلك وصل ابن جالو بماشيته إلى حرث أنس ، فبدأ المشهد ينقل جميع الحادثة كما هي ، وبدأ أنس ينظر إلى نفسه في عجب واستغراب ، ينظر إلى نفسه عندما يأخذ البندقية ، وينظر إلى نفسه عندما يجري وراء ابن جالو في غضب وحماس ، وينظر إلى نفسه عندما يطلق عليه ثلاث طلقات في شدة وصراخ.

وما إن سمع أنس صوت طلقاته في هذا المشهد الفظيع حتى بدأ يرتجف ويصرخ في رجفة وصياح ، فانطفأ نور ذلك المشهد عقب هذا الصراخ الذي لا يدلّ على شيء كما يدلّ على انتباه أنس من غفلته!

(٨)

قال الشيخ مالك في صوت يملؤه الحنان والحبّ : لقد وقفتَ على حقيقة الأمر يا بنيّ ، وكنت خليقا أن تضطرب وتعاني القلق ، أما الآن فإنك مكاشف عن قرار ترضاه وتطمئنّ إليه ، ولو قد أقمتَ بين أهلك هناك لما قدر لك من الانتهاء إلى ما يطمئنّ إليه قلبك الذي لا بدّ له من أن يطمئنّ ، وإلى ما تستريح إليه نفسك الحائرة ويخرج به عقلك من الشكّ إلى اليقين .

إنك يا بنيّ لست من أولئك الناس الذين تفرض عليهم الحيرة ضربة لازب وينفقون أعمارهم في القلق الذي يهلك النفوس ، ويضطرّها إلى عذاب الضمير. لست من هؤلاء في شيء ، ولكنك من الذين فطروا على الحزم والعزم الذين لا يشكون إلا ليستيقنوا ولا يقلقون إلا ليطمئنّوا ، فأقلّ عليك اللوم واطمئن إلى الراحة في هذا الموطن الساهر العجيب ،

وارسل نفسك على سجيتها ، ودعها تفكر ماوسعها الـتفكير ، فإنك صائر آخر الأمر إلى قرار ترضاه .

قال الفتى أنس : وهل إلى ذلك من سبيل؟ لقد كلّفني هذا الموطن ما لا أطيق ، وعرض عليّ مشهدا لا أستطيع عليه صبرا ، ولا أملك له احتمالا ، ولقد جعلني مبغضا لعقلي ، مبرما بنفسي ، لا أدري ماذا أصنع ، ولا أعرف ماذا أريد .

قال مالك : رفقا بنفسك يا بـني ، وإنصـافا لضـميرك هـذا المسكين الذي تعبث به كما يعبث الطفل بلعبته ، لقد كنت من قبل تحكمه في أمرك كلّه وتسلطه على نفسك وعلى كل شيء وتراه وحده الحكم الذي تـرضـى حكومته والقـاضــي الــذي لا يردّ قضاؤه . فها أنت قد أصبحت ترفض مـا تـراه رفضـا ، وتشتكي من ويلاته شكوى ، وتأبى رؤية الحادثـة كمــا هـــي ما ظهر منها وما بطن حيث يظهر لـك في المشـهد أن الله قـد بعثك لتنتقم مـن جالّو عن طـريــق ابنــه ، ويعوّضـك خــيرا مما فات من صنائع أبيك ، وهذا كله هو ما ترى ، وهذا كلـه هو ما يقع ، وهذا كله هو ما تريد أن ترفضه رفضـا ، وتنبـذه نبذا . كلا ! فليس من الممكن أن تصاحب ضـميرك مصـاحبة العبد للسيّد بـل يجـب عليـك أن تصـاحبه مصـاحبة الرقيـب للرقيب .

قال أنس : ما سمعت كاليوم كلاما أحسن موقعا في النفس ولا أيسر مسلكا إلى القلب ولا أقدر على تهدئة الضمير ، ولقد كنت أريد أن أفرّ بضميري من حادثة تلك الجريمة لكنني لا أستطيع ، أما الآن فإني قد فهمت حديثك ، وهو بلا شكّ يريحني من عذاب الضمير الذي سئمته وبرمت به ، وأصبحت له مبغضا وعليه مضغنا.

قال مالك : أبشر يا بنيّ! وما أراك ستطيل المقام هنا بعد ما ظهر لك الحقّ وأزال عنك الحجب والستار فيما أشكل عليك من الأمر ، ووقفت على حقيقة تُخرجك من الظلمة إلى النور ، ومن القلق إلى الاطمئنان.

قال أنس : أم حسبت يا أبتي أنني أنتقل إلى موطن آخر؟ أم تظنّ أنني أعود إلى حيث أنا أقيم فيه من قبل؟

قال مالك : ما أشك في انتقالك من هنا يا بني ، أما الموطن الذي تذهب إليه فهو الذي لا أدري !

قال أنس : ومتى يكون ذلك؟

قال مالك : علم ذلك عند الله!

(٩)

كذلك أقام أنس في ذلـك المـوطن السـاهر أياما طـوالا ، مضطربا بين خوف يقسو عليـه حتـى يكـاد يهلكـه ، ورجـاء يشيع في نفسه حتى يفتح له إلى الأمل أبوابا عراضـا ، وكـان أنـس لم يسـتطع أن يعـدّ أيامـه أو يحصـيها ، لأن الأيـام في المـوطن السـاهر تجـري علـى وتـيرة واحـدة ، حيـث كانـت الشمس إذا طلعت على أنس وجماعته تزاور عن موطنهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وتراهم هناك فـإذا هم يعيشون تحت ظلال دائـم ، لا حـرارة فيـه ولا زمهريـرا ، وكان أنس ينظر إلى هذا كله ، ويفكر في هذا كلّـه ، لكنـه لم يبلغ في هذا التفكير شيئا ، وكان يلقي على نفسه هذا السـؤال أحيانا ، ما مقياس الحركة هنا؟ وما قيمة الوقـت في المـوطن الذي لا نحسّ بالليل إلا سرمدا ، ولا بالنهار إلا سرمدا وكأنه يعجز عن فهم هذه الحقائق كما يعجز النائم عن فهـم مـرور

الأوقات عليه أثناء نومه وحلمه ، حيث لم يستطع أن يقطع جازما في المنام أنه يعيش في أوقات الليل أو في ومضات النهار ، إلا بحوادث الرؤيا التي تمرّ به مرور السحاب .

كذلك كانت قضية الزمن في الأرض الساهرة ، وهي قضية لم يستطع أنس أن يصل إلى شيء طائل عندما يفكّر فيها أو يطيل النظر فيها .

ثم كانت علاقته برحيمة ، كان يذكر أن أباه الراعي هو جار لأبي رحيمة ، وكان هذا الجوار هو الذي أحدث بينهما الصداقة المتينة ، ثم أحدث بينهما علاقة لم يستطع أنس أن ينسى ما ظهر من هذه العلاقة من خيرات عميمة وثراء عريض ، لأن أبا رحيمة هو الذي استأجر أباه مالكا على تربية الماشية في وقت من الأوقات ، فبورك فيها ، ثم استعان به على زراعة القطن واستثماره عندما كان ثمنه باهظا ، فأعانه أبوه مالك واستثمر له خيرات القطن في زمن غير قليل ، فصار أبو رحيمة ثريا واسع الغنى ، كثير الأموال ، فصار أبوه مالك برّا وفيا يجلب الغنى والثروة لصديقه من رعي الغنم حينا ، ومن زراعة القطن أحيانا.

ثم لم يلبث أن ظهر بينهما شـيء آخـر أشـدّ وأقـوى وهـو التصاهر ، حيث اعتزم أبو رحيمة أن يزوّج ابنته لصاحبنا أنس واعتزم كذلك أن يعطي مالكا عددا غير قليل من قطيع الغنم. لكن الله جلّ شأنه قد وفّقه إلى إعطاء صاحبه كثيرا مـن الغـنم ولم يوفقه في أمـر الـزواج ، لأن رحيمـة قـد مرضـت مرضـا خفيفا أثناء الصيف وتوفّيت وهي لم تجاوز من عمرها خمسة عشر عاما.

هذا كلّه هو ما يذكره أنس ويفكر فيه ، ويطيل النظر فيـه ، وخاصة في هذا الحب الذي لا يزال يرى بشائره كلمـا يلتقـي بحبيبته رحيمة في هذا الموطن الساهر ، أكان الحب في وقت غير طويل تكفي اللحظة منه لإضاءة حياة كاملة؟ هذه مسـألة تراود أفكار أنس ، ولم يستطع بهذا التفكير أن يصل إلى شيء طائل منها ، هذا بـلا شـكّ قـد أدخـل في نفسـه بعـض القلـق والاضطراب ، وينتهي به أحيانا إلى اليـأس والقنـوط مـن كـل شيء ، ثم كانت الرحلة ، وكان أنس ينتظر تلك الرحلـة الـتي تحدّث عنها أبوه ، متى تكون؟ وإلى أين تدفعه تلك الرحلـة؟ أكان فيها شيء يعجبه أو يُسعده أو يشقيه ، كل هذا هو مـالم

يجد له جوابا في نفسه ، لكنه في هذا اليوم قد لاحظ أن الأرض قد زلزلت ، وأن الرعد قد بدأ يقصف ، وأن الزوابع قد طارت في كل مكان وأطرق هو لحظة فإذا هو يسمع صوت أبيه يقول في شيء من الهدوء والعمق .

يا أنس! الرحيل! الرحيل! قال أنس في صوت أشدّ هدوءًا وأكثر عمقا : إلى أين يا أبت؟ قال مالك : إلى ما شاء الله! إلى ما شاء الله !

فنظر أنس إلى من حوله من الأشباح فإذا هو يرى حبيبته رحيمة تقبل عليه هاشة باشة فقالت : لا تبال يا أنس ولا ترع فإني رفيقتك في هذا السفر ، ولا داعي للقلق . قال أنس متعجبا : أيّ نوع من الرحلة هذه؟ قالت رحيمة : رحلة عود إلى بدء . قال أنس : فما المقصود بذلك؟ قالت رحيمة : ستعلم ذلك عند ما يبلغ الكتاب أجله.

هنالك زلزلت الأرض مرة أخرى وقصف الرعد وصفرت الزوابع وطارت في كل مكان فوجد أنس ورحيمة نفسيهما تحت ظل شجرة نام فيها أنس في أول يوم ، فنظر كلاهما فإذا هما ينظران إلى جثمان أنس وهو ملقى على الأرض ، وكان

الناس يلتفون حوله التفافا شديدا ، فأخذ بعضهم يسأل بعضا : ماذا حدث له في هذا المكان؟ فأجاب واحد منهم : قد لسعه ثعبان من ثعابين هذه الغابة؟ وقال رجل آخر : وهل مات هو؟ قال رجل آخر : كلا ! فهو لا يموت بل هو يحتضر ، قال رجل آخر : وأين يوجد له ترياق لقتل السمّ الذي يسري في عروقه؟ قال رجل آخر : ذلك ما نبتغي إليه سبيلا ، ولقد بعثنا رجلا إلى أهل القرية المجاورة ليأت إلينا بما عندهم من الترياق .

فصاح أنس أسفا وحزنا عندما وقف على هذا المشهد المؤلم الفظيع ، وقال : انظروا إليّ يا قوم فأنا حيّ لم أمت ، وأنا نائم فقط ، فكيف أكون ملسوعا أثناء النوم؟ بالله ساعدوني أيها الناس !

قال هذا التعبير وهو ينتظر من القوم أن يسمعوه وينصتوا له ، لكنهم لا يسمعون ولا ينصتون ، بل كانوا يمضون على جهودهم في البحث عن الترياق ، ولما رأى أنس أنهم لم يسمعوه ولم يلتفتوا إليه ، أخذ يقترب منهم ويضربهم باليد ويصيح على وجوههم ، لكن هيهات! وهيهات! فإن القوم

لا يحسّون ضربه ولا صيحته ، هنالك التفت أنس إلى رفيقته رحيمة فقال : يا لخيبة أملي في هؤلاء القوم ، هذا يدلّ على أنني سأموت ، ولم يكد يتمّ هذا التعبير حتى ظهر رجل من وراء القوم ، فصاح قائلا : هل مات هو فعلا ؟ فأجابه واحد منهم بعد ما وضع يده على صدر أنس واستمع بإحدى أذنيه إلى دقات قلبه : أظنه لم يمت لأنه يتنفس! وقد يذهب عقله ووعيه فيظهر الآن في صورة ميت لا حياة فيه ، فقال الرجل وفي يده قارورة من قارورات الأشربة :

- هذا هو الترياق ، وهذا هو دواء السم الناجع ، فاسقوه منه ملعقة أو ملعقتين ، فإنه بعد السقي يقيئ قيئا خفيفا أو شديدا ، ويخرج من جوف بطنه ذلك السم ، ويخلصه من ضرره بعد حين .

كذلك قام رجال من هؤلاء ، واقتربوا من أنس وفتحوا فمه ، وسقوه ملعقة من الترياق ، وازدرَدها أنس بحلقومه ، فأخذ بعد لحظة أو لحظتين يتقيئ تقيأ شديدا ، وكان هذا القيئ خليطا بما في جوفه من ماء ودم ، واستمر به ذلك القيئ لحظات ثم انقطع ، فأخذ أنس يفتح عينيه شيئاً فشيئاً ، على

أصوات مختلطة تـدعوه وتزجـره ، وتحثّـه علـى القيـام علـى قدميه ، لكن أنس لم يستطع القيام وإنما استطاع القعود ، وإن أعصابه قد توترت ، وأعضاءه قد تمايلت ، ولم يتمالك نفسـه إلا أن يتفجر باكيا ، تذرف دمـوع عينيـه غـزارا ، وهنـا أشـار صاحب الترياق إلى من حوله من الناس أن يعينوه على حمل أنس إلى داره ، فيعتني به ويعطيه دواء آخر يعينه على الشـفاء العاجل . هكذا كان الناس يحملون أنس حملا ، ويذهبون بـه إلى دار صاحب الترياق ، ولما بلغوا تلك الـدار ، وضـعوه في مكان لا يرى أنس فيه إلا نفسه .

(١٠)

نظر أنس إلى الغرفة التي وجد نفسه فيها ، فإذا هـي مبنيـة من الطين ، ومتماسكة بغصون من الشجر الأخضر واليـابس ، وكانت هذه الأغصان قائمة في وسطها وأركانهـا ، أمـا سـقفها فكان منخفضـا لا يكـاد يرتفـع في الجـو إلا قلـيلا ، وكانـت أرضها خالية من الفراش والأثاث ، وكانت في زاوية من زوايا هذه الغرفة مائدة وكراسي وسرير ، وكلّها قد صنعت صـناعة خشنة غليظة ، أسند بعضها إلى بعـض ، وأقـيم علـى المائـدة مذياع صغير ، عليه غبار متطاير ، ووضع إلى جانبه صـحون وملاعق من طراز قديم . ثم في زاوية أخرى من هـذه الغرفـة مشجب معلق على الجدار ، في مقاليده ملابس مطرزة قطنية ، بعضها قديم قد ظهر عليه أثر البلى ، وبعضها جديـد لا يـرى عليه أثر كثرة الغسـل والتنظيـف . وكـان أنـس لم يسـتطع أن يقف على زوايا هذه الغرفة وأوصافها كما هي إلا بعد ما أفاق

مـــن نومـــه العميــق ، واســتعاد وعيــه وذاكرتــه في عجــب واستغراب ، وكان ينظر إلى ما حوله في هذه الغرفة ، وينظـر إلى نفسه وما على إحدى رجليه من ضماد ، وكان يحس منها الألم ، ويحس من عماد جسمه حرارة الحمى ، كما يحسّ في نفس الوقت حرارة هذه الغرفة . وكـان يحـاول أن ينتقـل مـن السرير البالي الذي طرح عليه إلى الحصير الـذي ألقـي علـى الأرض ، فإذا هو يسمع أصوات مختلطة من الخارج ، تتصـل إليه شيئا فشيئاً ، ولم يلبث أن ظهـر أمامـه أربعـة أشـخاص ، كان أحدهم رجلا قد بلغ الشيخوخة ، وامرأة قد تقـدمت بهـا السن ، وفتاتان جميلتان ، كانت إحداهما قد بلغـت العشـرين من عمرها ، وثانيتهما هي لم تتجاوز في عمرها خمسة عشر سنة ، وما إن وقع نظره عليهما ، وعلى مجموعـة مـن الخبـز العـريض الرقيـق الـذي وضـعته إحـداهما علـى تلـك المائـدة المغبرة ، مع طبق من دسم ، حتى قال مبتسما :

- يا حبيبتي رحيمة ، أين وجدت صفيّة ؟ومتى تركت أبانا مالكاً ولحقتِ بنا؟

نظر هؤلاء الأربعـة إلى أنـس داهشـين مـذهلين ، ثـم نظـر

بعضهم إلى بعض في شيء من القلق والوجوم ، فقال الشيخ متقطعا :

- أنت بحاجة إلى الراحة والسكون هنا قبل أن تستعيد وعيك كاملا ، أما أنا فاسمي عمران وأنا راعي الغنم في هذه القرية المتواضعة ، وهذه هي زوجي رقية وهي خبازة ماهرة ، أما هاتان الفتاتان فهما بنتاي ، كان اسم هذه هو رحمة ، واسم هذه هو صفورة ، لا رحيمة هنا ولا صفيّة.

أمّا أنت فقد وجدناك ملسوعا تحت إحدى الشجرات ، وأنا الذي وجدت لك الترياق لقتل السم الزعاف ، وحملتك إلى داري عندما رأيتك عليلا ، يحتاج إلى التمريض والعناية ، وأنا أؤمن كلّ الإيمان أنك ستعافى بعد وقت قليل إن شاء الله .
لم يكد الشيخ عمران ينتهي من حديثه هذا حتى وقع أنس في حيرة وارتباك ، وكان ينظر إلى وجوه هؤلاء الأشخاص ، دون أن ينطق حرفا ، ولما رأوه داهشا مذهلا ، أخرجه الشيخ عمران عن هذه الحالة المبهوتة بصوته المتهدّج فقال :

- يا رحمة أدني إليه طعامه وشرابه ، وهوّني عليه الأمر ، فإن الشفاء العاجل يأتي في أقرب وقت ممكن ، وأنتِ

يا صفورة جهّزي له ماء ساخنا للغسل وأدوات الاستحمام، فإنه بحاجة إليها إذا فرغ من الطعام والشراب .

هنالك انصرف الشيخ فأخذ أنس ينظر إلى وجه حبيبته التي كان اسمها الآن قد تغير مما علم من قبل ، أما هي بذاتها وجمالها فهي هي في نظر أنس لا تبديل فيهما ولا تغيير ، وكان يذكر جمال وجهها الرائع ، واعتدال قامتها الجميلة ، ويذكر ثغرها الذي يبتسم دائما ، ويذكر حركاتها الرشيقة المتزنة المعتدلة ، ويذكر بعد هذا كلّه ذلك الحياء الشديد الذي يمسكها دائما من أن تندفع إلى أكثر مما ينبغي ، هذا كلّه هو ما يذكره أنس عن حبيبته التي رافقته إلى تلك الشجرة التي وقع فيها الخَطب ، وها هو الآن قد عرفها ، لكن هذه الحبيبة لم تعرف من أمر أنس قليلا ولا كثيرا. وها هي الآن تتساءل متلهفة عن اسم هذا الرجل الغريب الذي نزل عليهم ضيفا تحت ظروف خاصة ، فيجيبها أنس في شيء من الغرابة:

- يجب أن تعرفي ما تسألين عنه ، أما أنت إذا لم تعرفيني حتى الآن فإن اسمي هو أنس.

قالت رحمة في حياء شديد : ألم تفهم من كلام أبي أنني لست فتاة تعرفها من قبل ، ولست رحيمة التي التقيت بها من

قبل ، وقد يقع بيني وبين تلك الفتاة تشابه كثير فيلتبس عليك الأمر ، أما تعلم أن اسمي رحمة واسمها رحيمة ، ولا اختلاط بينهما.

قال أنس متثاقلا : دعي عنك أمر الأسماء ، فإنّ عيني وعقلي وذاكرتي لا تخدعني ، فإنك التي عرفتك عند أبي « مالك » ، قالت رحمة متسائلة : وأين يسكن أبوك ؟وفي أي بلد خرجت منه؟ وماذا حملك على السفر حتى وصلت إلى تلك الشجرة التي وقعت لك حادثة اللدغ فيها ؟

هنا تفطن أنس إلى ما في أمره من مشاكلَ كبيرةٍ ، وهو يرى في نفسه أنه لا يستطيع أن يجيب على هذه الأسئلة مهما حاول ذلك بجهد قليل أو كثير ، ولم يستطع أن يتحدث عن ماضيه بقليل أو بكثير ، وهل في وسعه أن يجيب حبيبته أن أباه الذي ذكر اسمه الآن قد مات ، وأن حبيبته التي كان اسمها رحيمة قد توفيت قبل أن تبلغ الكبر في بلده ، وهل من الممكن أن يبين لهذه الفتاة أن لقاءه مع حبيبته الذي يدّعيه ، إنما هو لقاء تم بينهما في عالم غريب ، لا أحد يعرف ذلك العالم الغريب إلا هو ، ثم إذا سأله سائل عن ذلك الموطن

الساهر الغريب ، فهو لا يستطيع أن يشير إليـه ، أو يشـير إلى موطنه من مواطن الأرض ، فهل كـان مـن الحـق أنـه مصـاب بالهوس والهلوسة ، وأنه بحاجة إلى الراحة كما يقـول الشـيخ عمران ، قبل أن يستعيد وعيه كاملا ، وقبـل أن يتـبين حقيقـة الأمر. هذا كله هـو مـا جعلـه مغرقـا في الصـمت والـتفكير ، وجعله ينظر إلى نفسه كأنه أبله ، وكان لا يدري مـا سـيفعل ، وقد أصبح قلقا مضطربا ، وكـان صـوت حبيبتـه الـرخيم هـو الذي أنقذه من القلق والاضـطراب ، بعـد مـا أعيـا الجـواب . وكانت تقول :

- قد لا تريد أن تحدثني عن حياتك في أول لقـاء ، لا بـأس عليك ، فهذه هي وجبتك ، فكُلْ منها ما تشاء ، ومـا تقـيم بها الأود ، وأَرِحْ نفسك مـن التعـب والألم ، فإنـك بحاجـة إلى الراحة كما يقول أبي من قبل.

قالت ذلك ونهضت متثاقلة ، فمضت حتى اختفت .

ولبث أنس حائرا لا يـدري مـاذا يـأتي مـن الأمـر ، وكـأنّ حجابا قد أزيل عنه ، وأمرا قد كشف له ، فاقترب من وجبته ، وأخـذ يأكـل خبـزه مزدردا ، ويغمس بعض الخبـز في دسـم

لا يخلو من سمك طازج ، حتى إذا فرغ منها أقبلت صفورة تسعى إليه ، وتدعوه إلى الاستحمام .وكان أنس ينظر إليها فيطيل النظر ، ثم يرفع بصره إلى السماء ، ثم يدير عينيه من حوله كأنه يريد أن يلتمس شيئا أو أن يلتمس أحدا ، ثم يدعو صفورة في صوت ملؤه الدهش والحيرة والإشفاق : هلم يا صفورة ، أين مكان الاستحمام؟

أشارت صفورة إلى ناحية من نواحي الدار ، فقالت :

- هذا هو الكنيف ، وهذا هو الماء ، وهذا هو الصابون ، أما المنشفة فإني لا أستطيع أن أشارك بها غيري ، لذلك كانت أختي هي التي أعطتك منشفتها ، ورضيت أن تشاركك فيها ، فإذا انتهيت من استخدامها فحاول أن تردها إليها.

من هنا أخذ أنس يفكر فيما قالت صفورة ، وأخذ يسأل نفسه عن سبب جعل تلك الفتاة تسمح له أن يقاسمها هذه المنشفة ويشاركها في تجفيف بدنه بها ، أكان هذا دليل الحب أم دليل الإشفاق ، أيهما وقع منهما فإن الأمل لا يزال فيه ، والخير لا يزال يرجى منه ، فلتكن الأيام تظهر ما خبأت له منهما في هذه المحبوبة التي يتعلق بها قلبه وروحه ، كذلك

بدأ أنس يبادل هذه الفتاة حبا بحب ، وعشقا بعشق ، حتى بلغ هـذا الحـب والعشـق مـن الصـفاء والنقـاء علـى تقـدم الأيـام والشهور ، لأن صاحبنا أنـس يسـاعد الشـيخ عمـران في رعـي الغنم ، وترافقه أحيانا هـذه الفتـاة المحبوبـة إلى حيـث الكـلأ والمرعى ، ويمكثـان هنـاك ويسـتمتعان بهـذه الحيـاة الحلـوة الفارغـة مـن همـوم ثقـال ، ولم يلبـث أن كانـت هـذه الفتـاة المحبوبة التي كانت تعيش عيشـة صـامتة مـن قبـل ، وسـاكنة بأوسع المعـاني المفهومـة مـن السـكون ، لم يلبـث أن كانـت تعيش عيشـة ناطقـة ومتحركـة ، فأصـبحت تشـارك أمهـا في أعمال المنزل وأعمال الخبازة مشاركة فعالة لا تعرف الهـدوء ولا السكينة ، وتخرج مع أترابها من بنات القرية إلى الحقول ، وتعود مع الأصيل إلى أهلها ، وكانت أمها رقيـة تلاحـظ هـذه التغـييرات ذاهبـة وجائيـة ، وكانـت أختهـا صـفورة تغمزهـا وتستهزئ بها ، وتنقل أخبـار هـذه التغـييرات إلى أبويهمـا في مرح وحبور ، أما أبوهما عمران فهو ينظر إلى هـذه الأحـوال والتغييرات كمـا لا يـرى ، ويتسمع عنـهـا كـمـا لا يسـمع ، ولا يلقي لها بالا ، وكان يمضي في طـريـقـه كـأنـه لا يعلـم ما يجري حوله من الأمور شيئا ، وكان ينتظر يومـا تظهـر لـه

الحقيقة في هذا الحب الغامض الطارئ الذي ظهر فجأة بين أنس وابنته ، ولم يستطع كلاهما أن يخفياه ، ولم يستطع كلاهما أن يصبرا عليه ، بل كل ما في وسعهما في هذه الحالة الطارئة هو أن يمسك كل منهما مقعده في زاوية من وراء البيت ، ويتجاذبان أطراف الحديث بكرة وأصيلا .

على هذا النحو كان أنس وحبيبته يقضيان أوقاتهما في أحاديث الصباح وأحاديث المساء ، وكان كلما تتعمق هذه الأحاديث بينهما يزداد كلاهما حبا لصاحبه ، ويشتد كلاهما إعجابا بحبيبه ، وإن كان إعجاب أنس برفيقته أشد وأقوى ، وميله إليها قد صار ميلا عظيما ، ثم حاول الوقوف على هذا الميل فيرى أنه أغرب وقعًا وأعظم في نفسه أثرا ، أوشك أن يدفعه إلى الجنون ، وأوشك أن يسلب منه عقله وروحه ، وكان لا يخلو إلى نفسه في المرعى أو في الغرفة التي أسكنه الشيخ عمران إلا يخيل إليه أنه ينظر إلى وجه حبيبته وينظر إلى عينيها ساحرة فاترة تنظر إليه في أناة ووقار ، فتنفذ إلى أعماق نفسه وتلذع قلبه لذعا أليما ، وكثيرا ما كان يسمع صوتها في سمعه فيحدث هذا الصوت نشوة وغراما ، وقد

تلوح صفورة من بعيد فيدعوها أنس باسم حبيبته ، فتلتفت صفورة إليه فتقول له باسمة ومداعبة : مهلا بك يا أنس لست أختي رحمة ، وإني صفورة ، وإني أراك العاشق الولهان ، وأصبحت في نظري مجنون ليلى الذي يتراءى له صورة حبيبته في كل امرأة من هنا يعلم أنس أنه قد وقع في شرك الحب حقا ، وأنه لا يستطيع أن يفلت منه ، وأنه سينتهي به إلى أمرين كما تعود الحب أن ينتهي بأمثالهم من العشاق المجانين ، ينتهي به إلى الزواج حتما أو إلى الموت إن خفق في أمر الزواج .

(١١)

أصبح أنس ذات يوم فعزم في نفسه أنه سيظهر ما في قلبه من هذا الحب الطاغي الجارف ، وأنه سيطلب يد حبيبته رحمة للزواج من أبيها عمران ، لكنه لا يستطيع أن يمضي على عزمه في شجاعة واجتراء ، وكان يستحي من الشيخ عمران أن يواجهه بهذا الطلب ، وكان يرى أن الشيخ قد أسدى إليه معروفا من قبل ، وهو لا يستطيع أن يكافئه على هذا الصنيع المعروف ، أليس هو الذي أنقذه من موت السم الزعاف ، وشفاه من اللسع الهالك ، وأكرمه وأنزله مثواه ، ثم أطعمه وأسقاه حولا كاملا ، ثم بعد هذا الحول الكامل أراد هو أن يسدي إليه هذا الشيخ الراعي شيئا آخر أنفس وأغلى ، وهو أن يزوجه ابنته التي كانت أحب إليه من كل شيء ، أليس هذا الطلب نوعا من الطمع والجشع ؟هذا كلّه هو ما جعل أنس يستحي ويستنكف من طلب يد حبيبته للزواج ، لكنه في هذا

اليوم قد بلغ السيل الزبى ، وبلـغ هـذا الحـب قمتـه في قلبـه ، وليس من بأس في نظره أن يحتاط كيدا ويتمارض ، لعل هـذا التمارض سيبلغ به ما تمنى ، ويجعل الله له من ذلك سبيلا.

وكان أنس لم يتمّ هـذا الـتفكير حتـى سمـع طارقـا يــدق الباب ، فأخذ أنس يلتف جميع بدنه باللباس ، فأخـذ الطـارق يفتح الباب فإذا هو الشيخ عمران ، وهو يقـول لـه في صـوت متهدج صارم : عم صباحا يا أنس ! فما بالك لم تخرج اليـوم من الحجرة ؟ ولم تسلم على أحد من أهل البيت ؟

- قال أنس عابسا :أنا مريض أنا مريض!

- قال الشيخ عمـران : لسـت مريضـا يـا أنـس ، وإنمـا أنـت مشغول الفكر والبال ، تريـد أن تحـدثني عـن الـزواج ولم تستطع ، وتريد أن تحدثني عن العودة إلى مسـقط رأسـك ولم تستطع ، فأرى أن الحياء هو الـذي يمنعـك عـن هـذه الأمور كلّها ، وهل صدقت فيما أقول؟

- قال أنس صارحا متعجبا : والله صدقت يا مولاي! صدقت !

- قال الشيخ ضاحكا متقهقها: لا بأس عليك! لا بأس عليـك! فلك خيار بين الأمرين قبل أن أجيز لك الإذن فيما تقصـد

وما تريد ، أعني بذلك إذا عزمت على العودة إلى بلدك فورا فقد أجزت لك الإذن من الآن ، أما إذا كنت تريد أن تذهب بابنتي إلى بلدكم ، فإن ذلك يكون في العام المقبل ، وأنت تعلم أن أمر الزواج يحتاج إلى الاستعدادات والمتطلبات اللازمة قبل أن نتفق على عقد النكاح بينكما ، ويحتاج لنوع خاص من التعارف بين أسرتي وأسرتك قبل أن يتم الزواج ، ثم يحتاج إلى قدوم ولي الأمر للخطبة ، ثم يأتي يوم الزواج ويوم الاحتفال ، وهكذا ....

قال أنس وهو يتكلف الضحك ويخفي سخرية مرة : هذا جميل يا مولاي هذا جميل ! فإني فضلت أن أمكث معكم إلى العام المقبل لأجل حبيبتي ، وأراكم لا تسأمون من مكثي معكم في بيتكم كما أمكث من قبل ، وأساعدكم على رعي الغنم والبقر كما تريدون ، أما أمر أسرتي فإن لي في ذلك شأنا ، وسوف أقوم بإجراءات لازمة يتم بها اللقاء بينكم وبينهم عن قريب جدا ، وقبل يوم الزواج ، وأرجو من الله أن يسعد أيامنا وليالينا إلى ذلك اليوم المنتظر .

هكذا تفارق أنس ومولاه بعد ما اتفقا على هذا الوعد المختوم ، وبقي أنس واقفا لحظات في غرفته لا يقول شيئا ،

ولكنه يدير في نفسه ويستعيد ما يجري بينهما من حديث ، وهو يرى أن مولاه الراعي أراد أن يقف على حقيقة أمره ، لذلك كان يتحدث عن الأسرة ، ويتحدث عن الخطبة ، ويتحدث عن ولي الأمر ، وكان يؤثر حديث هؤلاء على حديثه في أمر الزواج ، ويؤمن بوجود هؤلاء حقا ورؤيتهم قبل أن يتم الزواج ، وليس من شك أن حديث الأسرة كان أشد موقعا في نفس أنس من حديث الزواج الآن ، لأنه حديث سوف يظهر خبرا غريبا ، وقد تظهر عقب هذا الخبر الغريب خطوب لا تنقضي ، بعضها قد يؤدي إلى إلغاء الزواج ، وبعضها قد ينتهي به إلى السجن . أليس هو قاتلا في مسقط رأسه قبل أن يلوذ بالفرار إلى هذه القرية ، فأصبح خادما يرعى الغنم إلى أماكن قريبة أو بعيدة ، وكان يرى أن جريمة هذا القتل كثيرا ما تشغل باله وتثير في نفسه ألوانا مختلفة من الشعور ، فهو مرة راض عنها ومبتسم لها ، لأن أباه مالكا قد جعله يعلم في الموطن الساهر أن الله جل شأنه قد أجبره على تنفيذ تلك الجريمة لينتقم من جالو خادمه الخائن عن طريق ابنه ، وليعوضه خيرا لما فات من صنائعه هو ، هذا الكلام يجعله راضيا كما ترى ، ومرة كان يضيق بها كل الضيق ،

وينكرها كل الإنكار ، لأن كلام أبيه لم يستطع أن يدرأ عنه جريمة القتل في أعين الناس ، ولا يغني من الحق شيئا عند أهل السلطة والقانون ، وأين الموطن الساهر من دستور الحكم والقانون ، وهل استطاع هو أو كلام والده الميت أن ينقذه من عذاب القانون وويلاته ، ذلك إذا أدركته السلطة ونفذت الحكم وأقرت له الاقتصاص منه بالقتل أو السجن المؤبد .

هذا كله هو الذي يجعله ساخطا على نفسه كل السخط ، ثائرا أعنف الثورة ، ومضطربا في ألوان مختلفة من الشعور . أما في هذا اليوم الذي فاجأه مولاه بحديث أسرته فقد بدأ يشعر من جديد بدوار في رأسه ، وبدأ يفكر عن الفرار من هذا الامتحان ، وقد خلا إلى نفسه الآن ، ويتعرض لهذا السيل الجارف من الأحاديث عن هفواته وخطيئته ، فأي غرابة من أن يعرض عن حبيبته رحمة ، حين تريد أن تشق عليه بهذا الزواج ، وأي غرابة من أن يفر إلى مكان آخر لا يصل إليه سلطة ولا قانون . هذا كلّه هو ما يفكر أنس فيه ذاهبا وجائيا من زاوية إلى أخرى في الغرفة ، ولكن تردده على الجدار

لا يتصل ، فهذه حبيبته « رحمة » قد أقبلت تحمل إليه القهوة التي تعود أن يفطر عليها ، وهي لا تضع القهوة أمامه كما تعودت أن تفعل في كل يوم ، وإنما تقف صامتة أول الأمر ، ثم تقول : ما ينبغي أن تعبس يا أنس والدنيا باسمة لك ، وتحبس نفسك في الغرفة ، وكل شيء يدعوك في الخارج إلى أن تنعم بجمال الطبيعة ، وإنما الخير إذا فرغت من قهوتك أن تستجيب لدعائه ، ولقد وددت أن أنبئك بأن أبي أخبرني بكل ما جرى بينكما من حديث ، وما أراك إلا أنك ضيق برأيه وكاره بمطلوبه ، مع أن الخير هو أن تقوم من اليوم بالاستعدادات وتنفيذ المطلوبات .

قال أنس : تلك الاستعدادات والمطلوبات هي مصدر الهم الآن وأصل العناء .

قالت رحمة : لا تبطئ يا أنس ، فما أرى إلا أنك شديد الحاجة إلى النشاط ، وأكبر الظنّ أن أبي لا يتفق معك إلا إذا قمت بتلك الإجراءات.

قال أنس : لا أدري من أين أبدأ هذه الإجراءات ، أ أعود إلى بلدتي فأخبر أسرتي بما عزمت عليه من الزواج أم أتمهل

قليلا وأقوم بالاكتساب لعلني أدّخر نقودا تعينني على النهوض بمؤونة العيال التي سأخوض غمارها عن قريب .

قالت رحمة : حسبك يا أنس فإن الاكتساب أولا هو رأي سديد عندي أنبئ مولاك بأنك لا تريد الرعي في أيام عيد الأضحى ، وإنما تريد الاكتساب ، فأنت تعلم أن سوق الغنم والأبقار هي ملتقى الرعاة وتجار الماشية في أيام العيد ، وأن كثيرا من الناس في ذلك الوقت يربحون بكثير في دوابهم ومواشيهم ، فحاول أن تشاركهم فيها ، واطلب حظوظك منها ، فإن وقت ذلك الموسم كما عرفت غير بعيد .

قال أنس في مرح وحماس شديد : شكرا لك يا حبيبتي فقد أسديت الرأي ، وإن في رأيك بعض الصدق إن لم يكن صدقا كله ، فسأقوم بما يجب علي من الأمور إذا جاء أوانه إن شاء الله .

(١٢)

ما أسرع الأيام إذا ملأت بالأعمال والآمال ، وما أبطأها إذا ملأت بالهموم الخفاف والثقال ، كان أنس ينظر كل يوم إلى عقارب ساعة الزمن ، ويستعجلها بهمومه وآماله ، لأنها تتبطأ في عين أنس وتتمهل ، وساعة الزمن في الحقيقة لم تسرع ولم تتمهّل ، وإنما هي تجري على وتيرة واحدة كما هي في حركاتها ودقائقها وثوانيها ، على هذه الحالة المستعجلة كان أنس ينتظر أيام العيد ، وينتظر قدوم الرعاة بمواشيهم وتجار الماشية بفلوسهم ، وسماسرة في حركاتهم ونشاطهم ، تارة في عقد البيع والشراء بين هؤلاء وأولئك من تجار الماشية ، ومرة في أخذ الربح على تجارة لا جمل فيها ولا ناقة .ثم ينتظر بعد هذا كله يوما يعود إلى بلده ليلا ، ويتسلل إلى أهله وأسرته ، ويجعلهم يعلمون ما يجري في أمره ، وما يحدث له من خطوب ، ثم يقنعهم على أمر التصاهر عند مولاه

الشيخ عمران ، ثـم يعـود إلـيهم بزوجتـه بعـد عقـد النكـاح ، فيواجه مشكلة الجريمة التي طالما ترهقه من أمره عسرا. هذا كله هو ما يفكر أنس فيه ، ويقدره في نفسـه تقـديرا . وهكـذا أراد هو أن يصطاد العصفورين بحجر واحد ، ويحل القضيتين برأي واحد .

ومع ذلك فقد مضـت الأيـام والأسـابيع ، وهـو علـى هـذا النحو من التفكير والتقدير ، ولم يشك هو في أن الأحلام لـن تكذّبه ، وكان الناس من حولـه يشـكون ويؤلمـون ويضـيقون بكل شيء ، ويزهدون في كل شيء ، لكنه لا يتألم ولا يشكو ، ولا يضيق ولا يزهد ، وإنما أخذ ينتظر دنو العيد ، ويستعد له في غاية الاستعداد ، وأقبل البشير ذات ليلة ، فـأذن في القريـة أن الهلال قد لاح ، وأن العيد قد قرب ، وأنـه لـم يبـق منـــه إلا عشرة أيام ، هنالك بدأ أهل القرية يخرجـون إلى السـوق لاستقبال الوفود من أهل المـدائن والقـرى ، يصـحبون معهـم ماشـيتهم إلى حيـث يبيعونهـا لأولئـك الوفـود مـــن الغربـاء الأغنياء ، والتجار الأذكياء ، وهنالك أقبـل علـى أهـل القريـة شاب وسيم الطلعة ، وضيئ الوجه ، مشـرق الجـبين ، منطلـق

اللسان، عذب الحديث في لهجته المحلية، وقد قارب الثلاثين، واحتفظ بقوة ونضرة قلما يحتفظ بهما الشباب من أمثاله، وكانت تظهر على وجهه وفي حديثه آثار النعمة والغنى، وكأنه لم يذق بؤسا ولا فقرا ولا هوانا. وكان قد أقبل يحمل مالا كثيرا فيه دراهم ودنانير، وكان كلما مر بأصحاب القوافل الماشية استوقفوه، وقدموا إليه الأكباش والأغنام للشراء، فيعرض عنهم حينا ويقبل عليهم أحيانا، ويقول لهم في دعابة وظرف: مالكم لا تصبرون فقد قضينا في هذه التجارة الريفية الواسعة زمنا طويلا، ونحن تعودنا أن لا نشترى ما لا يعجبنا من الماشية، ولا ما لا يصلح لحاجاتنا، أما إذا رأينا ما يروقنا ويعجبنا فسرعان ما نقف قبل أن تستوقفونا، ونشتري قبل أن ترغّبونا في الشراء، وقد نزيدكم مالا إذا أبيتم البيع فيما نحبّ ونرضى، ما أتمّ الفتى هذا التعبير حتى مال عن يمين فنظر أمامه فإذا هو يرى ما يروقه ويعجبه، لكن ليس كبشا هو ما ينظر إليه الآن، ولا غنما هو ما يرى، ولا حيوانا من الحيوانات الداجنة المألوفة هي التي تستوقف نظره في هذه اللحظة، إنما هى فتاة جميلة، وإنما هي رحمة خطيبة أنس.

هنالك اقترب الفتى من الفتاة ، لم يضبط نفسه ولم يملك أمره ، فأرسل كلمته الطيبة ، يسأل عن اسمها واسم أبيها ، ولما لم يتلق جوابا من هذه الفتاة ، اندفع إليها في شيء من الممازحة ، فقال : راقني منظرك ، وهالني جمالك ، فصبت إليك نفسي ، أفلا تفتحين لي قلبك ، فأتخذك لي زوجا ، وأضيف إلى جمالك جمالا ، وإلى نور وجهك قوة ونشاطا ، فإن استطعت أن تفصحي لي الآن فافعلي ، فإني في حاجة إلى من يؤنس وحدتي ، ويسلي عزلتي ، ويبدّد عني هموما ثقالا ، ثم سكت الفتى لحظة كأنه ينتظر من هذه الفتاة جوابا ، فنظرت إليه رحمة فقالت في صوت هادئ لا يخلو من حنق وسخرية : وقد أفصحت لي عما تريد آخر الأمر ، لكنني لا أستطيع أن أكون لك زوجا ، لأنني مخطوبة إلى رجل آخر ، وسوف يزوجني أبى إياه عن قريب ، أفهمت؟ أرضيت ؟

قال الفتى في صوت صاخب : أنا « ابن جالو » المشهور ، لم أفهم شيئا ولم أرض عن شيء ، وإنما ازددت جهلا إلى جهل ، وحيرة إلى حيرة ، فكيف أجبرك أبوك على خطوبة رجل لم ترض عنها؟ وفيم كان هذا الإجبار ؟وكيف تلقيت

أمره هذا على أنه جد ، مع أنك تعلمين أن كثيرا من الرجال في أمر الزواج يجدون في بدايته ليهزلون بعد عام أو عامين ، ويرضون عن أزواجهم شهرا ، ويسخطون عليهم شهورا ، وأن من العسير في الحياة الزوجية أن تتبين أخلاق الرجل ، أهازل هو أم جاد؟ إلا إذا مكثت معه زمنا طويلا.

قالت رحمة في شيء من العنف والصرامة : حسبك يا رجل فإني لست مجبورة ولا مأمورة ، وأنا التي اتخذته لنفسي زوجا ، بعد ما جربت أخلاقه وسلوكه ، ولا أدري أن الرجال يتمازحون بالزواج والطلاق إلى الدرجة التي تصفها لي الآن ، والذي أدري هو أنك رجل ولست امرأة ، فلماذا تُخرج نفسك من صفوف الرجال . وتزكي نفسك ، وتتّهم غيرك على أمور لا يعلم عاقبتها إلا الله ؟

قال ابن جالو وهو يتكلف الضحك ، ويخفي غضبه الشديد : فإنها المأساة يا سيدتي! إنها المأساة! وليس ينبغي أن تفهمي أني أسفّه أحلامك ، أو أتلاعب بعقلك ، وما أراك سفيهة ولا جاهلة ، وإنما أقدّم لك النصح وأحذرك من التعجّل في اختيار الزوج ، وإني أعلم حقا أنك لا تقومين

بالموازنة بين العاشقين قبل اختيار واحد منهما ، بل وجدت ذلك العاشق الولهان وأحببته ، وفضلته على رجال العالمين ، هذه خطيئة! وهذه مأساة! وخاصة في حياتك المستقبلة .

قالت رحمة وهى تبتسم ابتسامة ضئيلة : وما ذاك ؟ قال ابن جالو في دعابة وظرف: ألا تسمحين لي أن أعرف اسمك، وأن أنافس غيري على جمالك ، فيصبح كلانا كفرسي رهان ، إلى أن يفوز واحد منا بكأس البطولة في نهاية الأمر .

قالت رحمة متضاحكة : سمعا وطاعة يا مولاي! أنا رحمة بنت عمران .

هنالك دسّ الفتى يده في حقيبته التي لا تفارقه لحظة ، وأخرج ما فيها من دراهم ودنانير كثيرة ، فأسلمها إلى حبيبته الجديدة ، وقال : اتخذي من هذا المال ما تصلحين به حالك ، وإن بقي منه فضل فقدّميه لأبويك وأهلك ، وإن بقي منه شيء فانفقيه في وجوه الخير والمعروف ، فإني قد خرجت لك عنه ، كما خرجت لي عن الإعراض كلّه . ثم أطرق غير طويل كأنه يفكر في شيء آخر ، ثم رفع رأسه فنادى واحدا من حواشيه ، فقال له: اذهب إلى سيارتي فأتني بما فيها من الظرف والهدايا ،

وقدّمها إلى عاشقتي الخليلة ، لأني أصبحت من الآن عاشقا خليلا . فهمّت رحمة أن تقدم إليها الشكر على أياديه ، فأسكتها بوضع يده على فمها ، وأغرق كلاهما في صمت عميق ، كئيب طويل ، قال ابن جالو بعد حين : فقد كانت لهذا كله أسباب خطيرة حقا ، لأنني لم أنو السفر إلى هذه القرية لأجل الفتاة ، وإنما كنت مسافرا مع رفقائنا لأجل شراء الماشية ، ولكني على كل حال قد سرت على التوفيق ، بإرادة من الله ، وأعلم حقا أنه سيظهر حكمته ومشيئته في نهاية هذا الأمر كله .وإني لمسافر في هذا اليوم إذا انتهيت من شراء الماشية ، وإني سأعود إليك وإلى أهلك إن شاء الله بعد عيد الأضحى. هنالك وثب الفتى كأنما دفع إلى الوثوب دفعا ، وانحنى على عشيقته الخليلة ، فألقى على رأسها قبلة سريعة خاطفة ، ومضى أمامه لا يلتفت ولا يلوي على شيء .

وظلت رحمة واجمة لحظات ، قد أخذها شيء يشبه الدوار لكثرة ما رأت ، ولثقل ما سمعت ، ثم ثابت نفسها إليها شيئا فشيئا ، وأرادت أن تلقي نظرة إلى ذلك الحبيب العاشق الجديد ، ولكنها رأت أنه اختفى ، ورأت نفسها متيمة على

أثره ، وقد أنست نفسها على القيام ، وظلت كما هى قائمة واجمة جامدة ، ولم ينقذها من هذا الوجوم والجمود إلا يد صاحبها القديم ، والذي حركها بصوته بعد أن حركها بيده ، حيث صاح قائلا :

- ما بك يا حبيبتي ، وما وراء جمودك قائمة دون حراك ؟

(١٣)

لم تقل هذه الفتاة الحائرة كلمة ، ولم تلتفت إلى خطيبها بنشاط وحماس ، وإنما قابلته بعاطفة باردة ، أفقدت أنس رشده وصوابه ، فوثب إليها وثبة لا يشك من رآه أنه قد مسه طائف من جنون ، ولما رآى أن حبيبته لم تزل قائمة بين يديه ، عاد إلى أمنه وهدوئه ، وظل قائما مكانه يسألها عن سبب عبوسها ووجومها ، وهمت هي أن تكتم الأمر عليه ، ولكن الفلوس والهدايا التي ملأت يديها ، والتي رآها أنس بعين رأسه ، قد أنبأته بحدوث شيء غريب .فقال في صوت هادئ حزين :

- من أين لك هذا المال والهدايا ؟

قالت رحمة : من مولاي « ابن جالو »

قال أنس : ابن جالو! ابن جالو! ، فمن هو؟ ومن أين هو؟

قالت رحمة : لا أدري من هو ، ومن أين هو ، ولكن الذي عرفت هو أنه فتى مترف ، غني قوي موفور .

قال أنس : وماذا أراد منك حتى دفع إليك هذا المال والهدايا ؟

قالت رحمة : هو يريد مني ما تريد أنت !

قال أنس : وهل هو يحبك حقا كما أنا أحبّك ، حتى تأخذي منه المال والهدايا ؟

هنالك ابتسمت رحمة ابتساما مرا ، وهمّت أن تتكلم فلم تستطع ، وهمت أن تنصرف فلم تستطع ، فأثار هذا الصمت والسكون غضب أنس وفورته ، فصاح قائلا :

- أنت غبية حقا ، أنت غبية! تأخذين المال من غيري ، وفي غيابي لا والله لا أسمح لك هذا ، أنت خائنة وغبية !

هنالك ترفع الفتاة بصرها من الأرض ، تنظر أنس من أسفل كعبيه إلى قمة رأسه ثم بدأت تهز رأسها عن يمين إلى شمال ، وعن شمالها إلى يمين ، ثم تدمع عيناها غزارا ، وقالت في صوت مرتعد حزين : تلومني يا أنس وتتهمني

بالخيانة والغباوة لا بأس عليك! لا بأس عليك! هذا ما يقـول ذلك الفتى «ابن جالو» لا مشكلة يا أنس، لقاؤنا بالخير .

لم تبلغ الفتاة هذا الموضع من كلامها، حتى استدارت من موقفهـا متمهلـة، وأخـذت تمشـي إلى دارهـا، وكأنهـا قطـة مريضة، كانت في مشيتها متباطئـة ومتثاقلـة، وهـم أنـس أن يوقـف حبيبتـه مـن المـضـي، وأن يجادلها على هـذا الأمـر أو يقنعها، ويردها إلى شـيء مـن الرشـد، ولكـن حبيبتـه لم تلتفت إليه، بل هي تندفع في طريقها، لا تلوي على شـيء، وتقول في شيء من العنـف: لا تتكلـف مشـقة ولا جهـدا في إقناعي، فإنك لن تبلغ من ذلك شيئا . هنالك تحول أنس في بـطء إلى ناحيـة مـن نـواحي الطريـق، وانـزوى فيهـا انـزواء المريض، وجعل يضحك في نفسه ضحكا حزينا يوشـك أن يكون يأسا مهلكا وثورة جامحة، وكان يفكـر في نفسـه عـن ابن جالو الذي سمع خبره من حبيبته، أكان هـو ذلـك الفتـى الذي أطلق عليه الرصاص أم غيره ؟ أكان قد نجا من طلقـات الرصاص، وأنقذه الله من الموت؟ أليس غريبا أن ينجو الفتى من الموت فيحاول من جديد أن يتخذ حبيبتـه زوجـا، ليقـيم

معها إلا وقتا قصيرا ، ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ، ليعود إليها كما يعود الناس إلى أزواجهم ، وكان في هذا الوقت القصير ، قد ملأ قلبها واستحوذ على إحساسها وشعورها ، ولم يتعارف كلاهما معا إلا ساعات قليلة جدا ، ومن يدري لعل ابن جالو قد عاد إلى الحياة بعد موته شبحا ، فأراد أن يفتنه على حبيبته انتقاما منه ، كما قام هو بالانتقام منه لأبيه من قبل ، إنه لشيء عجاب .

هذا كلّه هو ما يفكر أنس فيه ، ويتعجب من مصير الأمر ، وكان لا يستطيع أن يرى نفسه منهزما أمام هذه الأحداث التي لا تزال لغزا ، وهذه الخطوب التي لا رأس لها في نظره ولا ذيل ، فكيف يستسلم لرجل غريب يأتي من مكان مجهول ، وينزع منه حبه نزعا ، ويسلب منه فتاته سلبا ، وهذا الرجل قد يكون شبحا كما يزعم ، وقد يكون غيره ، وقد يكون رجلا حيا معافى بعد أن كان مصابا بطلقات الرصاص من حيث أنس لا يدري ، وأيهما وقع فلا راحة ولا سكون حتى يبلغ مأمنه في هذا الأمر ، وتتبين له حقيقة كل شيء .

هنالك عزم أنس على الرجوع إلى الشيخ عمران ، فيجعله يعلم ما يجري بينه وبين ابنته من شجار ، وما طرأ على

حبهما من مفاجآت وتغييرات ، وهنالك يستجمع أنس نفسه المشردة ، وخواطره المتفرقة ، ويمشي أمامه خطوات ، ثم يتحول فيمشي خطوات ، وكان قلقا بعض الشيء ، مستشعرا بعض الاضطراب ، لكنه لا يكاد يمشي خطوات أخرى حتى يبلغه صوت رقيق من بعيد ، فيه عذوبة ورقة وحنان ، ويمضي شطر الوجه الذي يأتيه منه الصوت الرقيق ، فإذا هو يرى أخت حبيبته ، وكانت صفورة هي التي تناديه وتستوقفه ، وتدنو منه وتهاجمه قائلة : ما بك يا أنس تتصرف كالمرأة الغيورة ، تلوم حبيبتك على ذنب لم تقترفه ، وتهمة كانت بريئة منها ؟ قال أنس مبتسما : ألا تسمعيني يا قاضية قبل أن تصدري عليّ حكما ، قالت صفورة وهي تضحك : كذلك أنت يا غيور وقد أصدرت حكما على أختي ، قبل أن تقف على حقيقة الأمر. قال أنس في رفق وأناة : فما موقفها من هذا الأمر الآن ، أهازلة هي أم جادة؟ قالت صفورة صارمة : إنها جادة! إنها جادة! إنها لا تلعب بهذا الأمر ، وإنما أخذته مأخذ جدّ ، قال أنس متسائلا شاحب الوجه : فما مشورتك فيه يا بنت عمران؟ قالت صفورة : مشورتي الآن هي أن تذهب إلى أبي ، فاخبره بما يجري بينكما من سوء التفاهم .

وأقبل أنس على مولاه عمران بعد لحظات ، فلم يلقه الشيخ هاشا باشا كما تعود أن يلقاه ، وإنما ابتسم له ابتسامة فيها شيء من كآبة ، على أن الشيخ لم يكن فارغ البال ولا مطمئن النفس ، وإنما كان معنيا بأمر عظيم يضمره ولا يظهره ، فلما رأى الفتى منه هذا الفتور أقبل عليه مداعبا كأنما يستخفه إلى شيء من النشاط ، فجعل يتحدث إليه عن سوء تفاهم جرى بينه وبين حبيبته ، ولكن الشيخ لم يخف ولم ينشط ، وإنما جعل يسمع من أنس أحاديثه الطويلة التي لا تنقضي ، ويجيبه بين حين وحين برأسه يهزه أو طرفه يومئ به أو لسانه يديره في فمه بالكلمات القصار .فلما رأى أنس منه ذلك سيئ به وضاق به ذرعا ، وقال في شيء من الحدة :

- ويحك يا مولاي إنك لشديد الكآبة اليوم ، وما سعيت إليك أبتغي كآبة أو حزنا ، وما أقبلت عليك لتنغض إليّ رأسك أو تومئ إليّ بطرفك أو تلوي لي لسانك بهذه الألفاظ التي لا تغني ، إنما جئت ألتمس عندك إصلاحا أو مشورة على هذا الأمر .

قال الشيخ عمران وقد أخذ ابتسامه يتسع قليلا : تلتمس عندي ماذا يا أنس ؟

قال أنس : ألتمس عندك الإصلاح بيني وبين حبيبتي رحمة ، كما ألتمس عندك التحدث إليها في لين وهوادة ، حتى يستقيم لي أمرها .

قال الشيخ عمران متضاحكا في فتور : وقد أفسدت أمرك بيدك ، ثم أقبلت الآن تريد مني أن أصلح ما أفسدته ، وتريد أن ألتمس لك عذرا على عدم قيامك بما أمرتك به من قبل ، أليس أنا الذي طلبت منك أن تذهب إلى مسقط رأسك ، وتأتيني بأهلك ، ونقوم بعقد النكاح في أقرب وقت ممكن ، لكنك لا تطيع أمري ، وإنما تطيع هواك أو هواها ، وأخذتما تثيران الفتنة التي تفل الحد وتفسد الطبع وتذهب المروءة بينكما ، وبدأ الضعف والوهن والفتور ينسلان إلى نفوسكما من كل سبيل ، فأصبحتما لا تقدران على الأخذ بزمام الأمور ، وتجنب أسباب التهم والنفور ، ألم يأن لكما الآن أن تطيعا أمري ، فتصلحا ما فسد بينكما في عجل سريع.

فلما فرغ الشيخ من حديثه وعاد إلى إطراقه ، فأمعن فيه وجعل ينكت الأرض بعصاه ، قام الفتى متثاقلا يريد أن ينصرف ، فنظر الشيخ إليه نظرة قصيرة كأنما يريد أن يقول شيئا آخر ، لكنه أمسك فمه وعاد إلى إطراقه ، واستدار الفتى نحو الباب .

(١٤)

وفي الغد أقبل أنس على مدينته ليلا ، وكانت هذه المدينـة هادئة ساكنة ، لا نبحة كلب ولا صياح ديك ، ولا مرور إنسان ، مما جعل سكونها مخيفا وهـدوءها مفظعـا ، لا حركـة فيـها ولا نشاطا ، لأن تلك الليلة قارسـة شـديدة الـبرد ، وزمهريـرة الشتاء ، وتنعكس في هذه الزمهريرة الباردة ألوان مختلفة مـن الصخور والجبال ، تتهطل عليها وابل من الصـدى ، وقطـرات من الندى ، وتداعبها رياح صرصر عاتيـة ، حتـى ليخيـل إلى من كان يمكن أن يراها في تلك الليلة أنها جبال مـن ثلـج ، أو بحار من هضب .

وفي هذه المدينة الجامدة الهامدة ، كان أنس يسـعى وجـلا مذعورا ، ثقيـل الحركـة ، بطـيء الخطـو ، يلتفـت عـن يمـين وشمال ، في كثير من الخوف والحذر ، وكأنما يخشى أن يراه أحـد ، وكـان يسـعى مجهـودا مكـدودا ، قـد أجمدتـه هـذه

الزمهريرة القاتلة ، ولكنه على ذلك يسعى إلى غايته ، لايبالي بردا ولا شتاء ، حتى إذا بلغ دار عمه « بهمان » ، فرآه قائما بالباب ، يرقب من يأتي إليه في الظلمات ، فلما رأى وجه أنس ، تلقاه بحماس وابتسامة صامتة ، ثم سعى بين يديه حتى أدخله الدار ، وأغلق من دونهما الباب ، ثم سعى بين يديه ينقله من دهليزه إلى حجرته ، يسعى لا يقول شيئا ، وأنس وراءه يمشي لا يقول شيئا ، حتى انتهيا إلى حجرته في أقصى الدار ، فلما دخلاها أغلق بهمان الباب من دونهما ، فأشار إليه بالجلوس على إحدى أرائكه ، وقال :

« لا تَرُعْ يا أنس فقد أذهب الله عنك الحزن ، وأنقذك من تهمة القتل ، فما أن سمع أنس هذا الكلام من عمّه حتى جثا كل من الرجلين على ركبتيه ، وأخذا يدعوان بهمهمة غير مسموعة دعاءً طويلا ، فلما فرغا من دعائهما مدّ بهمان يده إلى قدح فيه شيء من القهوة ، فقرأ عليه بسملة ، ثم قدّمه إلى ابن أخيه أنس ، فشرب منه ثم رده إلى عمه ، فشرب ما كان قد بقي فيه ، ثم تحول الرجلان عن مكانهما ذاك إلى خشبة قد ألقيت على الأرض ، فجلسا عليها وبين أيديهما شراب من القهوة ، أقبلا عليه صامتين ، ثم قطع بهمان الصمت قائلا :

- ما خطبك يا أنس وماذا جعلك لا تعود إلينا قبل اليوم ؟

قال أنس : أظنّ أن ذلك الفتى قد مات يوم أطلقت عليه الرصاص ، وأظن أن السلطة ـ إن ظفرت بي ـ ستحكم عليّ بالموت حتما ، لذلك فررت إلى بلاد الغربة ، خوفا من السلطة والقانون .

قال بهمان : إن صاحبك لم يمت في ذلك اليوم ، وإنه مصاب في عضو لا يؤدي إلى الموت ، ولما نُقل إلى المستشفى عالجه الطبيب بالجراحة ، ولقي شفاء بعد وقت قصير .

قال أنس : وأين هو الآن؟ وما مصيره بعد تلك الحادثة ؟

قال العم بهمان : إنه يمكث في هذه المدينة ، وإنه لا يزال معنا ، ومن الممكن أن أريك داره في الصباح ، وتلتقيه إذا أشرقت الشمس وقبل أن يرتفع الضحى ، والغرابة في أمره أنه ابن جالو خادم أخي وشقيقي ، ولقد أخبرنا بعد شفائه بشيء كثير من سيرته وسيرة أبيه ، وفي ذلك يقص لنا ما قال له أبوه عن أخي مالك وأسرته ، وما قدموه له من خير كثير وثراء عريض ، ثم أخبرنا بما وصاه أبوه بأن يعود بعد موته بقطيع

الغنم الذي ساقه إلى ناحية من نواحي الصحراء إلى أهل سيّده مالك وأسرته ، ولما مات أبوه أراد أن ينفذ أمره ، لذلك كان يعود بقطيع الغنم إلى حيث أصابه البندق بطلقات لا يموت بها في ذلك اليوم ولا يحيى .

قال أنس في شيء من العجب والاستغراب : ما شاء الله! ما شاء الله! وأين قطيع الغنم الآن ؟

قال بهمان وهو يهزّ رأسه : هي في حظيرتي تأكل العشب والكلأ مع غيرها من الماشية ، وأنا أنتظر عودتك وأعيدها إليك برءوسها وحذافيرها .

قال أنس : وقد حصحص الحق الآن ، وإن ابن جالّو هو الفتى الذي جاء تاجرا إلى القرية التي فررت إليها يوم الحادثة ، وأنه قد أصبح غنيا موفورا ، أليس كذلك ؟

قال الشيخ العم : بلى كذلك ! وقد بارك الله فيما بقي له من الماشية ، فصار رجلا تاجرا غنيا ، يجوب في المدائن والقرى ، لشراء الماشية هناك ، ويعود بها إلى هنا للبيع .

قال أنس : ما لقيت ذلك الفتى وجها بوجه ، ولكن قد شاع خبره في اليوم الذي نزل تاجرا في القرية ، وغادر هناك قبل

أن ألحق به ، وقبل أن أراه يقينا ، أما الآن فقد جاء الوقت الذي يجب أن يتعارف بعضنا على بعض ، ونسوّي ما بيننا من حساب ، ونفتح صفحة جديدة في حياتنا ، ونزداد بذلك ودا وتعارفا وإخاء .

قال الشيخ العم : وما أراك ستطيل المقام هنا قبل أن ترى ابن جالو مقبلا علينا بمرحه وبشاشته ، إنه الفتى الكريم ، يجد اللذة كلّها في أن يهب للناس ماجمع من ماله وثروته .

قال أنس وهو يضطجع على الخشبة ، ويتوسّد بإحدى ذراعيه : فليحفظه الله حتى يعود إلينا في راحة وسلامة .

كذلك أسدل الليل ستاره على الرجلين اللذين يسمران إلى قبيل الفجر ، وأقام أنس بعد ذلك شهرا كاملا في بلدته ، ينتظر قدوم ابن جالو الغنى التاجر ، لكن الفتى لم يقبل ولم يعد ، بل كان ينتقل من قرية إلى أخرى ، ومن مدينة إلى مدائن مختلفة ، وكان أصحابه ينتظرون نزوله في المدينة قبيل العيد بيوم أو يومين ، ويتشوقون إلى ما كان يصل إليهم من كرمه وسخائه ، لكنه لم ينزل ولم يحضر المأدبة التي تعود أن يحضرها في مواسم العيد وغيرها ، هنالك بدأ أنس يقضي

أيامه ولياليه في قلق واضطراب ، وكان مضطربا بين شك يقسو عليه حتى يكاد يهلكه ، واطمئنان يشيع في نفسه حتى يفتح له إلى الأمل أبوابا عراضا.يخلو إلى نفسه ويعرض أمر حبه وزواجه ، فيظهر له مظلما قاتما وبشعا منكرا ! ييؤسه ، أو يكاد ييؤسه من كل شيء ، أليس هو يعلم الآن أن ابن جالو لم يكن شبحا ولا ميتا كما يزعم من قبل ، وإنما هو كائن حى قد أصبح غريمه ومنافسه ، يريد أن يسلب منه حبيبته سلبا ، وينزع منه وده نزعا .أليس من الغريب حقا أنه قد نجا من جريمة القتل ، وأراد أن يقع في جريمة أخرى كانت أشد وأقوى ، وهى جريمة الحب ، وهل استطاع هو أن يصبر لابن جالو أن يزوج فتاته ، فيقتل بذلك حبه بنفسه ، أم ينازعه عليها فيعتدي في هذا النزاع إذا لم يتغلب على غريمه بسهولة ويسر .؟

هذا كله هو ما أوقع صاحبنا أنس في حيرة وارتباك ، وينغص عليه يقظته ، ويذود عنه نومه ، أو يفسد عليه أحلامه إن غلبه النوم . وكان يفزع من هذه الحيرة أحيانا إلى عمه بهمان أو إلى من حوله من الناس ، فلا يستطيع أن يظهر لهم

ما في قلبه من هذا الحب الطاغى ، وإنه أراد أن يصبر حتى يلتقي بمنافسه فيريه وجهه أولا ، ويطلب منه العفو على جريمة اقترفها من قبل ، فيتعارفان ويتسامحان ، ثم يريه موقفه ثانيا من هذا الحب الطاغي ، لعل هذا الفتى المنافس يصغي إلى عذره ويترك له حبيبته . ثم يعود هو إلى أهله فيعلن لهم إرادته في هذا الزواج . كان هذا هو عزمه وإرادته ، لكنه لم يستطع أن يبلغ قليلا من هذا العزم ولا كثير . وإنما كان يمضي أوقاته بين قومه في قلق واضطراب ، وكان يختلف أحيانا إلى أصحاب ابن جالو ، ويسألهم عن سلوكه وسماحته ، أو يسألهم عن رحلاته وتنقلاته ، فيسمع منهم خيرا وثناء . وخاصة عند أهل البؤس والضرر . وكانوا يرون أنه لا يعرض لهم بشيء يكرهونه ، ولا يلقونه بشيء ينكره ، وإنما يذيع فيهم البر والمعروف ، ويعمهم بالكرم والسخاء ، هذه الأخبار قد جعلت أنس يتوقع السماحة على ذانك الأمرين عند ذلك الفتى الغني الموفور .

وإنه لمع ذلك ذات يوم ، إذ أقبل عدد غير قليل من الناس في قوافل الماشية ، وإذا هو فيهم صديق حميم لابن جالو

الكريم ، وإذا هو أنس قادم ، ويسأله عن صاحبه الفتـى ، وإذا هو يجيب أنسا في مرح وحبور :

« كان صديقي يتمتع مـع حبيبتـه رحمـة في القريـة ، ولـن يعود إلى هذا المكان إلا بعد أيام أو شهور ».

(١٥)

وارتفع الضحى من الغد ، فإذا الشيخ الراعي والفتى الغـني المترف ماضيان في حوارهما حول ابنته رحمـة ، فلـم يشـعرا بحاجة إلى الراحة ، ولا برغبـة في الهـدوء والسـكينة ، وإنمـا مضيا في الحديث متناقشين ومتجادلين.وكـان الفتـى المـترف الغني يريد أن يقنع الشيخ الراعي على أمر ابنته ، وأن يزوجها إياه في أقرب وقت ممكن . وكان الشيخ يأبى له ذلك وينكره في غاية الإنكار ، وكان يخبره عن أنس ويجعله يعلم أنـه قـد قطع وعدا لخادمه أنس ، وأن ذلك الوعد قد أصبح دينا عليه ، ولا بد أن ينجز وعده ، وأن يقضي ما عليـه مـن ديـن ، لكـن الفتى يحاور الشيخ في هـدوء ودعـة ، وفي ابتسـام يوشـك أن يكون ساخرا ويقول له وادعا باسمـا : فإنـي لا أفهـم مـنــك ما تقول اليوم !

قال الشيخ عمران : فقد فهمت مني كل ما قلته منذ التقينا ، أفتراك قد نال منك الجهد وأدركك التعب ؟

قال ابن جالو : كلا ! لم ينل مني الجهد ، ولم يدركني التعب ، وإنما أنظر إلى إصرارك في هذا الأمر الذي لا تستطيع أن ترد منه شيئا ، ولو أوتيت قوة الناس جميعا لما استطعت أن ترد عن ابنتك ألم الحب والفراق حين يدركها اليأس والقنوط في إقناعك على ما وصل بنا هذا الود الخالص ، فإني أرى يا عم أن لأنفسنا غرائزها ، كما أن لأجسامنا غرائزها ، وإن غرائز النفس لا تصدر عن العقل وحدها ، وإنما تصدر عن الطبع أحيانا والمزاج ، وهذا الطبع أو المزاج قائم على الحب والشوق والهيام ، لا يستطيع الإنسان له ردا ، فاعلم يا عم أن ابنتك رحمة قد وقعت في شرك الحب لم تستطع أن تفلت منه أو تجد منه مخرجا ، وهي الآن مولهة بحبي ، وكذلك أنا فقد أصبحت أسير هذا الحب ، فلماذا تحاول أن تفرق بيني وبينها ، وتحاول أن تشتت ما بيننا من ود وإخلاص ، ولقد انتهى أمر هذا الحب إلى زوجتك الخبازة ، فابتسمت له في أول الأمر ، وهي تظن أنه لون من عبث الشباب والفراغ والجدى ، ثم بدأت تضيق به عندما لاحظت في أمرنا شيئا نكرا ، وهو الجموح في الحب إلى حد التطرف ، وهمت هي أن تكف ابنتها ، لكن تهديدها

لم يغن شيئا ، وها أنت الآن تقف إلى جانبها ، وتصر على رأيها إصرارا ، فأنا أعلم أن ذلك الإصرار لا يغني من الحق شيئا ، أليس كثير من الناس قد علموا أن ابنتك الكريمة قد فتنت بي إلى أبعد حدود الفتنة ، وهي ترضى أن تسافر معي إلى العاصمة ، فتعيش هناك ، إذا لم ترد رؤيتها هنا ، وأبيت أن تزوجني إياها .

ولما بلغ ابن جالو بحديثه إلى هذا المقام ، أطرق الشيخ عمران لحظات ، وكأنه يأخذه شيء يشبه الدوار ، ويتصبب عرقا في وجهه وجبينه ، وكان لا يدري بأن الحب قد طغى بابنته إلى هذا الحد ، حتى لا تبالي بمرافقة الغريب الأجنبي إلى العاصمة دون علمه ومشورته ، ولم يفق من هذا الدوار إلا على صوت امرأته التي تهون عليه الأمر ، وترغبه في الهدوء والسكينة حتى يعود إليه أنس ، ويعلم بعد ذلك ما سيكون موقفه نهائيا من أمر هذا الفتى الذي أغوى ابنته رحمة إلى أبعد حدود الغواية . على هذا النحو أدار الفتى ظهره ، ومضى صامتا لا يقول شيئا ، ولا يلوي على شيء ، فقالت رقية لزوجها الراعي في صوت مرتعد حزين :

- إن ابنتك هي التي أوقعتك في هذه المشكلة الخطيرة ، وهي التي جعلت العنزين ينضحان في إناء واحد ، وجعلت السيفين يلتقيان في غمد واحد .

قال الشيخ الراعي عمران في صوت هادئ ثابت يشيع فيه الحزن والغضب معا :

- ما ينبغي أن تكون هذه الفتاة ابنتي ، وما ينبغي أن أكون أباها ، وقد اغترت بطرائف النقود والهدايا ونسيت الوعد والمروءة ، ولأجعلنها ضحية ذنب اقترفت ، ولتعلمن نبأ ذلك بعد حين .

(١٦)

وأقبل أنس طالعا من بعيد ، ينهب الأرض نهبا ، ويهـرول إلى مجلس الشيخ هرولة ، ولم يكد ينتهي إلى ذلك المجلـس حتى أخذت بيده امرأة الشـيخ فسـاقته إلى ناحيـة مـن نـواحي الحارة ، فأنبأته بكل ما وقع في غيابه ، من تصرفات ابنتها مع ابن جالو وما حدث بينها وبين زوجها من خلاف وشجار ، ثم أنبأته بعد هذا كله مـا أزمـع عليـه زوجهـا عمـران مـن ثـورة وانتقام ، هنالك عاد أنس إلى سيده ، وفي وجهه آيات الكآبـة والحـزن ، وفي وجهـه مـع ذلـك آيـات الطمأنينـة والرضـا ، ودموع تجرى من عينيه ، لم تدر امرأة عمران ما يسـبب هـذه الدموع ، أكانت دموع حزن وابتئاس ، أم كانـت دمـوع غبطـة وابتهاج .

يقول الشيخ عمـران : ويحـك يـا أنـس إن الــذي حــدث لا يدعو إلى الحزن ولا إلى البكاء ، وإنما يحتـاج إلى العـزم

والحزم ، ويحتاج إلى اتخاذ قرار كالرجل ، ومقاومة فساد في أمور لا يراد منها إلا الخير.

وهم أنس أن يبدأ حديثه قائما ، ولكن مولاه أذن له بالجلوس فجلس ، وأطرق وأغرق في صمت عميق ، لكنه غير طويل ، ثم قال :

« يؤسفني أن ابن عمي جالو قد رحل من هنا اليوم ، ويؤسفني أنه غير حاضر في هذا المجلس ، ولو استطاع أن يكون حاضرا كما أريد لكان هذا الأمر سهلا وميسورا ، لأن هذه الحادثة لا تحتاج إلى النزاع بينه وبيني ، ولقد عرفته وعرفت أباه ، الذي كان خادم أبى مالك ، لثلاثة عقود من الزمن ، وإن لي مع ابن جالو لشأنا وحديثا عجبا . وأود أن أقص عليكما حديثي ، ولكن أي حديث أجعلكما تقفان عليه؟ أأقص لكما حديثي الجديد الذي وقع لي عندما وصلت إلى بلدي ، أم حديثي القديم الذي مضت عليه أعوام طوال ، والذي دفعني إلى قريتكم هذه ، والذي اضطرني إلى ما أنا فيه من خدمة ، وإلى أن أعمل لكما بيدي في هذه القرية ، وما عملت لأحد قبلكما بيدي سوى ما عملت لأبي وإن كان جالو وغيره من الخدم ليعملون لأبي كما أعمل لكما الآن ».

قال الشيخ عمران فهو مشغوف بالقصص ، كلف بغريب الحديث : « وإن لك لحديثا قديما بينه وبين حديثك هذا الجديد سبب »

قال أنس : « نعم يا مولاي » قال الشيخ عمران « فاقصص علينا حديثك ».

وأخذ الزوجان يقتربان من أنس ، وأخذ أنس يقص عليهما حديث خادم أبيه جالو وحديث ابنه الوحيد ، ثم انتقل من ذلك إلى سيرة أبيه مالك وإلى سيرة حياته ، كيف بدأت وكيف انتهت إلى هذا الموطن الذي وجد نفسه فيه ، ولم يفرغ أنس من هذا الحديث حتى أغرق في بكاء هادئ ، وأغرق الشيخ وامرأته في وجوم عميق ، ثم نهض الشيخ من مجلسه فأخذ يقبل رأسه ويديه ورجليه باكيا مستعبرا مندفعا في صمت لا يكاد ينقضي ، مظهرا من التكرمة والإجلال ما لم يتعود أن يظهره لأحد من قبله ، ثم قال :

« أنت وما تشاء يا أنس من حب صاحبتك ولكن لا تنس أن لها حقا وخيارا ، وإنا حريصان على ألا تظهر من أمركما شيئا فتضطرنا فيكما إلى ما نكره »

قال أنس في شيء من الاستحفاف : لا بأس على صاحبتي أن تتزوج ابن جالو ، ما دام زواجه لا يدعو إلى شر ، ولا يغري بفساد ، إنه ابن عمي الذي قام بخدمتنا في الأمس ، وإذا قمت بخدمته في هذا اليوم فلا عيب في ذلك .

أراد أنس أن يمضي في طريقه بعد ما فرغ من هذا الحديث ، فالتفت فإذا هي حبيبته رحمة ، وكانت قائمة من ورائه منذ حين ، تسمع كل ما يلقيه أنس من أحاديث وأخبار . وقد استغرقت في بكاء هادئ حزين ، تسيل الدموع على خديها غزارا . فظلت صامتة واجمة ، لم تقل شيئا ، فرآها أنس ولم يقل شيئا ، وإنما ظل في مكانه عابسا واجما ، وشاعت الكآبة فيما يحيط بهما من الحياة والأحياء ، وهدأت لذلك نفوسهما ، كأن هذا الحزن الشائع الهادئ قد مسهما بجناحه ، فأشاع فيهما شيئا من الكآبة والهدوء انخفضت له أصواتهما شيئا ، وآثر كل منهما الصمت وبلغ كل منهما قلب صاحبه من طريق هذا الصمت العميق ، وإنهما لفي هذا الصمت العميق ، وإذا ضجيج يدنو منهما ، وإذا هما ينصتان كأنما يريدان أن يتعرفا على مصدره . ولكن الضجيج يدنو حتى يبلغ الدور ! وينهض الشيخ عمران وامرأته الخبازة

ليعرفا من أمره ما يجهلانه ! فما أسرع ما يمتلئ قلب الشيخ خوفا ووجلا ، وما أسرع ما يضطرب قلب امرأته فزعا ورعبا !

هذه هى صفورة قد أقبلت ، ولم تقبل وحدها ، وإنما أقبل معها عدد غير قليل من الناس ، وقد أهمهم أمر ذو بال ! فهم يلغطون في كثير من الدهش والحيرة ، منهم من ينكر ، ومنهم من يعرف ، منهم من يرضى ، ومنهم من يسخط ، وأهل القرية يسألون ويستنبطون فلا يظفرون من الجواب إلا بهذا اللغط الذي تختلط فيه المعرفة والإنكار ، والتصديق والتكذيب ، والشك القاتم واليقين المشرق ، فأما صفورة نفسها فقد كانت خارجة عن طورها ، تأتي من الحركات بيدها ووجهها وجسمها كله مالم يتعود أهل القرية الإتيان بمثله .

وكانت كلما دنت من والدها الشيخ ازداد هيامها وتولهها ، حتى إذا رأته عدت إليه عدوا ، ولم تكد تبلغه حتى ألقت نفسها بين ذراعيه ، وجعلت تضمه وتصرح على وجهه ، وتقول في صوت يقطعه البكاء ويبلله الدمع الغزير : لقد مات ! أقسمت بالله لقد مات ! وحلفت برب الكعبة لقد مات ! وكان الشيخ يهدؤها ويسألها عما حدث ، ويدعوها إلى أن

تقلل من هذه الأيمان والبكاء ، وتخفف من هذه الحدة والصراحة ، ويسألها من جديد : من الذي مات ؟ وكيف وقع له ذلك الموت فجأة .؟

فأجابت هى قائلة : مات مولاي ابن جالو في حادثة اصطدام سيارة عند ما كان عائدا الآن إلى بلده!

قال الشيخ في حيرة وارتباك : إنا لله وإنا إليه راجعون !

قالت امرأة الشيخ الخبازة : حديثك هذا يا صفورة حديث جهيزة ، وقد قطع قول كل خطيب .

أما أنس فلم يكد يسمع هذا النبأ العظيم حتى خر صعقا ، ولم يفق من صعقه إلا بعد لحظات قصار ، حيث وجد نفسه بين ذراعي حبيبته وفخذيها ، وهي جالسة على الأرض الجرداء ، تنظر إلى عين أنس التي بدأت تفتح بعد أن كانت مقفلة من لحظات ، فوضعت يدها على رأسه ، وقالت له في صراحة لا لبس فيها ولا غموض : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقد شاء الله أن أكون معك من اليوم ، ولا أكون مع غيرك إلى الأبد .

فقال أنس في همسات لا تكاد تسمع : لله ما أخذ ولله ما أعطى ، وإنا لفراقك يا ابن جالو لمحزونون . ! !

(١٧)

كذلك أقبل بعضهما على بعض وتعانقا ، ولم يلتق الـراوي بكليهما بعد تلك الحادثة المؤلمة إلا في يوم الزفاف ، حيـت تم بينهما العقد ، وتم بينهما اللقاء !

هنالك ظهر له طيف أبيه بعد عقد النكاح ، فتبسم له أنـس ضاحكا وقال : رحمك الله يا أبي مالك ! فأجابه أبوه وقال :

– في هذا اليوم لست أباك مالكا ، بل أنا عمـران ! وبـارك الله في زفافكما وأسعد الله أيامكما !!

فقاطعته امرأته بقولها ؛ من الذي تناجيه يا أنس ؟ فأجابهـا أنس قائلا ؛ أناجي أبي في قلبى وأدعو له في ضميري ، ذلك بعدما أنجز الله وعده ، ونصر عبده ، وبدد المشاكل وحده !!!

هنالك نظر كلاهما إلى الوراء عندما سمعا لغطا ، فإذا هو الشيخ عمران وأهله ، وهم يريدون أن يرافقوهما إلى السـيارة الـتي تنتظرهمـا في جانـب الطريـق ، حيـث يودعهمـا الأهـل والأقارب ، ويعود أنس مع امرأته إلى مسقط رأسه .

٢٥ ـ أكتوبر ـ ٢٠٠٩ ميلادية